صبحي فحماوي

الرجل المومياء

بدعم من امانة عمان

الفارابي

مكتبة ديوان العرب يقدم لكم

الرجل المومياء

مجموعة قصصية

للكاتب الأردني صبحي فحماوي

الرجل المومياء

وتابع أبو مشرف حديثه لضيوفه الجالسين في بيته على فراش عربي أرضي، وهو يجثو أمامهم على ركبة ونصف، نحيلاً مثل قرن الخروب الذي يشير بيديه قائلاً :

- وفي إحدى المرات يا إخوان، تحركت تروس الرافعة النفطية، فأخرج حبل الحديد لنا من باطن الأرض رجلاً، كأنه الفسيخ المقدد! أو كالمومياء الفرعونية! كان الرجل أسود، قالو إنه مصبوغ بالنفط لطول المدة، وأنتم تعرفون حفريات آبار النفط ؛ تخرج منها صخور وأتربة، وماء وغاز ونفط أسود، ولكن خروج رجل مسلول كالسيف من باطن الأرض، فذلك أمر مدهش! لقد عملت في آبار النفط يا جماعة، أكثر من خمس وعشرين سنة، كنا فيها ننقب عن النفط، ونستخدم الأشعة لتصوير الآبار. وطيلة تلك المدة، لم أشاهد إمرأ مدهشاً، مثلما شاهدت في ذلك اليوم. نعم شاهدت رجلاً يُسلُّ من بئر النفط، ملفوفاً بكفن أسود، بتأثير صبغة النفط .

كان أبو مشرف متوتراً وهو يروي للرجال الذين جاءوا لزيارته، والسلام عليه، بعد تقاعده من العمل في بلاد النفط. وفي الحقيقة، إن بعضهم جاء للسلام عليه، والآخرون جاءوا ليتأكدوا من الإشاعة التي انتشرت في الحارة، والتي مفادها أن(أبو مشرف*) مجنون! وأنهم أخرجوه من أعمال النفط بمعلولية، وأعطوه تعويضاً، وأنهوا عمله. قيل:

"إن أبو مشرف مختل عقلياً، وإنه صار يشاهد أشياء في الخيال، ويقول إنها حقيقة!" وقالوا:

" إن هذا الجنون، يتم بتأثير اشعاعات أجهزة حفريات النفط."

ومسح أبو مشرف شاربيه، ثم واصل حديثه بلباقة، وكأنه حكواتي أيام زمان :

- فَكُّوا الكفن الأسود عن المومياء، فظهر أمامَنا رجلٌ بكامل لحمه وعظمه! غسلوه بخرطوم الماء، فأخذت أصابع يديه ورجليه تتحرك! وسمعنا عظام رقبته تطقطق! وما هي سوى دقائق، حتى فتح عينيه اللتين أخذتا تتحركان داخل محجريهما، يميناً ويساراً، وفي كل الاتجاهات. ثم نطق وقال :

---

* المؤلف لا يلتزم بقواعد(أبو، وأبا، وأبي) ويكتبها دائماً كما تلفظ (أبو فلان).

" أين أنا!" فسأله أحد عمال النفط مندهشاً:
" من أنت؟" فأجاب متماوتاً :
" أنا ....." وسأله آخر :
" ما اسمك؟" فتحركت عينا المحنط في محجريهما يميناً ويساراً، وتابع قوله :
" اسمي حاتم الطائي. ولكن ما الذي حصل معي؟ ومن أنتم؟"
فقلت لـه وأنا أرتجف من هول المشهد :
" نحن عرب وأجانب، نعمل في حقل نفط (أبو حليلة*)!" فقال:
" ولكن ليست هذه ربوع (أبو حليلة)! هذه ربوع بني طي! فصاح به مراقب الحفارة :
" يا أخي عرِّفنا على نفسك، هل أنت حاتم طائي أيام زمان؟"
فقال الرجل المفكوك من حفاظه :
" نعم،أنا حاتم الطائي، ولكن ليست أيام زمان! فأنا لم ألبث في نومي يوماً، أو بعض يوم!"
وهنا تهلل العمال والمراقبون العرب، وكان المهندس الأمريكي رالف مبهوراً بما يشاهد، فلا يفهم شيئاً مما يقال! وسأله أحدنا قائلاً :
" هل أنت متأكد أنك حاتم الطائي الذي ذبح حصانه للغريب؟" فرد الرجل المومياء قائلاً :
" أنا فعلاً ذبحت لـه حصاني، وانتظرته بعد ذلك فترة طويلة، ولكنه لم يفِ بوعده!" فسألته بنفسي قائلاً : " من الذي انتظرت؟"
وفوراً يا إخوان، تجمعت حوله وسائل الاعلام والتلفزة والسينما والاذاعة، ورجال ونساء الاخراج والتصوير والمكياج والملابس والمؤثرات الصوتية والضوئية، وتعقدت الأمور .
يبدو أن هكذا أخبار، تنتقل بسرعة الضوء، خاصة إلى التلفزيونات الفضائية التي فضحتنا هذه الأيام بكل أبعادنا. وبتوجيهاتٍ من المخرج المصري، أدخلوه إلى حمام مدير الشركة، فغسلوه وحمّموه بالماء والصابون السائل المعطر، ودلكت جسده خبيرة مساج مغربية، وجيء بحلاق لبناني ليصفف لـه شعره، واستُقدِمت فنانة تونسية، لتختار لـه الملابس، وفني مكياج سوري، وكان فني إضاءة فلسطيني يسلط الأضواء هنا وهناك، وجاءت مذيعة أردنية للتعليق على الحدث المهول! وتقدم مصور جزائري، يحمل كاميرا ثقيلة على كتفه، ويتابع تصوير الحدث، وغيره وغيره، فأخرجوا حاتم طائي أيام زمان، بالهيئة والهيبة والملابس، والمؤثرات الصوتية والضوئية

والبيئية .. وجعله المخرج يمسك لجام الحصان العربي الأصيل، الذي اشتهر بأنه كان قد ذبحه إكراماً لضيفه، وطلب المخرج من الجمهور المحيط به أن يهتفوا، وكنت أنا واحداً منهم، لنجعله يصحو من غفلته وتوهانه قائلين :

- حاتم الطائي! (عيدها! عيدها! عيدها !) نريد منه أن يقوم باعادة مشهد ذبح الحصان للغريب، بينما الكاميرات، وسماعات المسجلات والتصوير والاخراج والبيئة الصحراوية تحيط به.

صدقوني ياجماعة، كان المشهد شيئاً لا يصدق !

وفي بيت(أبو مشرف) همس الزائرالعجوز لصاحبه:

" فعلاً كلام لا يصدق!" فهمس الجالس إلى جواره كبرميل السردين:

" الرجل مجنون، وخالص كازه!" وتأتأ ثالثهم الذي يطوي نفسه مثل موس كباس:

" الله يعوض على أهل (أبو مشرف)!" فهمس العجوز مضيفاً:

" لم ينهوا عمله لله فلله! أكيد أنه قد جن، فاضطروا لانهاء خدماته، واعطائه تعويضاً!" وهمس برميل السردين بصوت متحشرج :

" المعوض هو الله!" فهمس موس الكباس قائلاً :

" يا عمي هذا من تأثير اشعاعات تصوير آبار النفط، تعمل تشوهات في المخ!" وقال الرجل المبطط كبرميل السردين:

" الله يجازي الذي كان السبب!"

واستمر أبو مشرف في سرد حكايته قائلاً :

" تنحنح حاتم الطائي، الذي كان نحيل الجسم، أسمر البشرة، يبدو من عينيه انطفاء وعدم تركيز، وكأن بصره زائغ! وكان لم يزل يسلّك حنجرته، من تأثير نقعها في النفط، طوال تلك القرون الماضية، ثم قال:

" ما الذي تريدون أن أعيده؟" فقال لـه المخرج :

" ذبح الحصان للغريب!" فأجاب حاتم مندهشاً :

" وهل أنتم كلكم وصلكم خبر ذبحي لحصاني !؟"

وتابع أبو مشرف محدثاً ضيوفه :

" كان حاتم الطائي ينظر حوله يميناً ويساراً، وإلى الأمام وإلى الخلف، وهو يضع كفه فوق عينيه، كمظلة واقية للشمس، ثم قال منكمشاً:

" يبدو أن الدنيا قد تغيرت كثيراً، في يوم وليلة! الناس؛ ملابسهم تغيرت! سلوكهم وتصرفاتهم تغيرت! لهجتهم تغيرت! أخلاقهم تغيرت! مهنهم وأعمالهم تغيرت! خيولهم استبدلت بهذه الأشياء الحديدية المعقدة! طموحاتهم تغيرت! شرفهم وكرامتهم تغيرا، لم تكن معالم الصحراء هكذا بالأمس !"

وتحدثت المذيعة بعيداً عن السماعات والكاميرات قائلة لزميلها :

" والله إنه لن يذبح الحصان! إنه حصان عربي أصيل!"

فقال لـها زميلها مقدم البرنامج :

" أعتقد أنه سيوفره، ليستخدمه لركوب السياح الأجانب عليه بالأجرة. فهذا سيعطيه دخلاً من السياحة." وقال صحفي يحضر الحدث :

" أتخيّل أنه سيهديه للمهندس رالف ؛ مدير فرع شركة النفط، ليكسب رضاه!" وقال تاجر كان يورد لنا مستلزمات العمل :

" ولكنك تعرف أن الأمريكي رالف، كالرجل الآلي، لا يريد أن يكسب سوى النفط!" وتدخل مراسل في الموقع فقال ساخراً :

" لماذا لا يراهن عليه في مباريات سباق الخيول، فذلك سيعطيه ايراداً مالياً سخياً، أفضل من الذبح للضيف." فعلّق عليه سائق شاحنة التصوير قائلاً :

" تأكدوا أنه لن يستطيع ذبحه، لأن جمعيات الرفق بالحيوان ستفضحه في كل أرجاء العالم، وستسد عليه كل الدروب!" فتدخل مصفف الشعر قائلاً :

" لا تنسوا جمعيات البيئة ومنع انقراض السلالات! فكلها ستعارض ذبح هذا الحصان! إنه حصان تاريخي!" فقال ميكانيكي يعمل معنا :

" أعتقد أن حاتماً قد ذبح الحصان لرجل، اكتشف لاحقاً أنه لا يستحقه، ولم يحصل من ذلك الضيف الغريب على الفائدة المرجوة، ولذلك فلن يعيدها مرة أخرى!" فسألت الميكانيكي قائلاً :

" أتقصد إنه كان يريد من الضيف شيئاً ذا بال، مثل تعبيد شارع أمام بيته، أو تحويل أرض ميري إلى أرض (منظمة تجاري)، أو الحصول على قرض بنكي، أو وظيفة جامعية لابنه، فذبح الحصان لـه؟" فأجابني مستنكراً :

" وهل كان أيام حاتم الطائي، شوارع مُعبّدة، أو أراض منظمة تجاري، أو(قرود) بنكية، أو جامعات، أو شيئاً مما تقول!" فقلت مخذولاً:

" ولكن بالتأكيد إن حاتماً كان يريد مصلحة، من ذبح حصانه، لذلك الضيف، وما دامت المصلحة لم تتحقق، فلن يعيدها أبداً!" وقال فني التجميل :

" أستغرب أن رجلاً عربياً يذبح حصانه الوحيد، لشخص غريب قادم من بعيد! وهل هذا كرم ضيافة، أم تدمير للذات؟ وهل فكّر حاتم أنه قد يأتيه بعد كرمه هذا، غزو من قبل جماعة ذاك الغريب، فلا يعود قادراً على المقاومة دون حصانه، الحصان كان يستخدم للكر والفر، للحرب والسلم، للسفر والعمل والرحلات، للأفراح والأتراح وكل شيء. الحصان يا جماعة كان كل شيء بالنسبة للعربي في ذلك الوقت، كان سلاحاً استيراتيجياً! فكيف ذبح العربي سلاحه الاستيراتيجي، ووقف مكشوفاً أمام الغريب؟"

فصرخ المخرج المترقب لحظة بدء الحدث قائلاً :

" لا داعي لفتح مزيد من الجروح! ها نحن نشاهد اليوم أعراباً يذبحون أوطانهم للغرباء، ويقدمونها لهم على طبق من ذهب! إذا كنت أنا الذي هو أنا، لا أستطيع أن أستوعب، وأفهم ما يدور حولي! فهل تريدون من هذا الرجل المومياء أن يفهمكم الموقف؟ ويحل لكم اللغز؟ دعوا حاتماً يتصرف بحريته، لنصور المشهد، وننتهي من هذا الفيلم! دعونا نشاهد ماذا وكيف سيتصرف!"

فقال حارس الشركة المختفي خلف الواقفين :

" أعتقد أنه لو خُيِّر الطائي، فقد يستخدمه للحرب والكر والفر، فهذه هي أكثر الأيام حاجة لرباط الخيل!" فقال فني الكمبيوتر، الذي يضع كمبيوتراً نقّالاً على منضدة أمامه:

" لا دور للحصان، في زمن الحروب الكمبيوترية، والذرية، والبيولوجية، والكيماوية." فرد عليه فني الاضاءة قائلاً :

" يا عمي ما يزالون يحسبونها بالحصان ؛ كم حصاناً قوة المضخة؟ وكم حصاناً قوة السيارة، وكم حصاناً قوة الدبابة؟ وكم حصاناً قوة القنبلة الذرية؟ ما زال الحصان سيد الموقف، ولكن هات من يطوِّر الحصان العربي الأصيل، ويصنع لنا سيارة عربية أصيلة، أو دبابة عربية أصيلة، أو طائرة عربية مقاتلة، أو صاروخاً عربياً عابراً للقارات بقوة مليون حصان مثلاً! ولكن أحصنتنا اليوم محنطة كهذا المومياء !"

تضايق المخرج الذي أصدر إشارته لبدء التصوير للحدث، بعبارته المعروفة:

"أكشن !" وكررها عدة مرات. ولكن حاتم الطائي لم يتحرك ليذبح الحصان، أو ليفعل أي شيء ! بقي واقفاً يتثاءب، متجهماً متردداً، مندهشاً! يغالبه النعاس، فهجم المخرج باتجاهه، وأخذ منه لجام

الحصان، وخرج هو وعصابته من منطقة الحفر، بينما جلس حاتم الطائي على حجر هناك، يغالبه النعاس، ثم نام على الأرض، وقالو إنه مات مرة أخرى.

قام زوار (أبو مشرف)، وانفضوا خارجين، كل إلى بيته، وهم يتمتمون بأحاديث جانبية!

مجلة ثقافات البحرينية – 14- 2005

كلاب!

الكلاب تتكاثر أمام منزلي كتكاثر النمل .. تبدأ كالنمل، ثم تكبر كالفئران، ثم تصبح كالارانب، ثم تقوى كالقطط، ثم تتضخم كلاباً شرسة.. وأنا أضع قدوراً من الطعام أمامها، وأطعمها، وهي تأكل وتتدافع وتنثر الطعام على الأرض، ولكن الكلاب كبرت وتوحشت، أكثر من قدرتي على ضبطها، صارت ديناصورات صغيره، تصدر نباحاً متواصلاً.. وأنا ذاهبة لاحضار الطعام، وعائدة محملة بالعظم والدهن.. لم يبق لحّام في المنطقة لم يعرفني، ولم يعرف قصتي مع الكلاب.

أحببت الكلاب، وشعرت أنني محتاجة لشيء من الحنان، والكلاب ليست كما يصفها ماركيز في إحدى رواياته:

" إنها ليست وفية، بل هي ذليلة بطبعها."

أنا شعرت عكس ذلك . الكلاب وفيّة ومحبة لصاحبتها، ولذلك بحثت عن الحنان والألفة والمحبة في صدور الكلاب، بعدما يئست من محبة الرجال. كلهم أحبوني، وكلهم غازلوني، وكلهم عملوا معي مواعيد غرام.

كنت أعمل مضيفة طيران، فنسافر من بلد الى بلد، وفي المطار البعيد، نذهب إلى الفندق المحجوز لنا. نسهر الليل ونشرب.. الطيارون يشربون كثيراً خلال الليل، في بهو الفندق، يقولون لنا :

" ماذا نفعل، إذا لم نشرب، ونغازل الفتيات، ونتقاتل مع زملائنا الطيارين والمضيفين؟"

يدعوننا نحن المضيفات للسهر معهم. بعض المضيفات كنّ يرفضن السهر. كن يخفن خوض التجارب، من المطار الى غرفة الفندق، ومن الغرفة الى المطار، وأما أنا فبعد تمنُّع شديد، انهارت مقاومتي. قعدت معهم في بهو الفندق الذي يسمونه (اللوبي)، وشربوا مشروبات روحية، بينما طلبت أنا عصير رمان، ومرّةً أخرى عصير تفاح، أو قهوه، أو شاياً. صاروا يضحكون عليّ:

" أنت تشربين لتسهري أكثر، أم تشربين لتنامي؟"

" أريد أن أنام."

"إذن أشربي بيره، نبيذ، ويسكي، ثم نامي !"
" أعوذ بالله ! أنا لا أشرب مشروبات روحية ! إنها محرمة !"
" أنت هبلاء، مغفلةّ !"
" أنت الأهبل!"
" تبدين جميلة جداً وأنت مستفزّة !"
" شكرا ."
"هذا الجمال لم أشاهده من قبل! لا أعرف من أين يأتون بمضيفة جميلة مثلك! هل صمموا جسدك عند مصمم الأزياء؟"
"(تبارك الله أحسن الخالقين) !"
" هل تعتقدين أننا جالسون هنا في جامع ؟"
" أعرف أننا في فندق خمسة نجوم."
" ما رأيك أن نجلس في الزاوية البعيده المطلة على النهر."
" لا مانع، نجلس."

وجلسنا هناك، وغازلني، واستلطفت الغزل، وبعد حوار طويل وإقناع.. بثّ معلومات غزيرة في مخي، لإقناعي بوجهة نظره.. هؤلاء الرجال صيادون ماهرون للنساء. انهارت مقاومتي! قال لي إنه يحبني، ثم تركني أنام وحدي.

وبعد اللقاء الثاني والثالث والرابع، وجدت نفسي أنام في حضنه. وعدني بالزواج قائلاً : "أنا أعشقك. لم أشاهد في حياتي إنسانة تفهمني مثلك. أنت ذكية وجميلة، وشخصيتك رائعة ونظيفة ! ما هذا الشّعر؟ هل هو مصنوع من الحرير؟ عيناك زرقاوان؟ هل أهدتك اياهما حوريات البحر؟ شقارك! يا الهي! أكيد أنك مصنوعة من ثمار الشمام؟ رائحة جسدك كالشمام ! من صنف أناناس. أصابع يديك رقيقة، مسحوبة كأقلام الرصاص ولكن بطراوة لب الموز. ما هذا الجمال يا حسناء. حتى اسمك حسناء. أنا أدفع نصف عمري وأتزوجك. ولكن الآن وقبل الزواج أريد أن أشم رائحة جسدك. أريد أن أقبّل قبلتي أريد أن التجيء إليك، أريد أن أسبح فوق بساطك الطائر، المحلّق في الجو، أريد أن أطمئن اليك. أريد أن أكون معك، أريد أن أختفي بين ثناياك. أريدك يا حسناء!" انهارت مقاومتي، وتوحدت غرفتانا أثناء الليل.

وبعد ثلاث سهرات غرامية من هذا النوع، اختفى عدنان، ولم يعد لـه أثر، وإذا التقت عيناي بعينيه في أحد المطارات، طارت عيناه في السماء، وبقي جسده يتجرجر على الأرض مخذولاً.

وبعدها تعرفت على الطيار سليمان، ثم المضيف وهدان، ثم المضيفين فلان، وفلان، وفلان، وكل منهم كما يقول المثل (وعدتني بالحلق، خرّمت انا اوداني، لا نابني منك حلق، وبقي وجع ذاني) فتهت مع التائهات.

أنا أبحث عن حب رجل ينقلني من شقاء العمل إلى بيت الزوجية، بيت الاستقرار، أريد أن أشعر أنني على أرض ثابتة. كرهت السير في طرقات الطائرات المنسابة فوق الغيوم. رغبت في الوقوف على أرض ثابتة صلبة تحت قدمي. تمنيت القعود في بيت يقولون عنه (لا مكان مثل البيت) أريد أن أشعر أنني في بيت الراحة. بيت الزوجية. أمشي معهم وأطيعهم. بيت الطاعة، بيت الطاعة! لكنهم يخذلونني، ويستمتعون بي، ثم يذهبون لاستكشاف غيري، إنهم يستكشفون البنات مثل استكشافهم مدن العالم، من سدني إلى هونكونج، إلى سنغافورة، كوالالمبور، دلهي، موسكو، لندن، امستردام، نيويورك، كيب تاون.. هكذا يستكشفون خديجة، وليليا، وسوزان، وسلمى، وماريا، وأسمهان، ويذهبون. وأنا أفهم لماذا يأتون، ولكنني لا أفهم لماذا يذهبون!

هل ستبقى عيشتي هكذا! تحولت من مضيفة جوية، الى مضيفة أرضية، بناء على طلبي، واشتريت بيتاً صغيراً لنفسي، لأنثى بلا ذكر، وقعدت فيه. فراغ كئيب . صرت أحدِّق كثيراً في المرآة، فأرى وجهي قد كبر، وترهلت قسماته، ووضعت السنون دوائرها عليه. يقولون إنهم يعرفون عمر الشجرة، من عدد دوائر مقطع ساقها من الداخل، وأما أنا فالدوائر التي ترسم عمري، تتلوى ظاهرة على قسمات وجهي، أشعر أنني زهرة بدأت تذبل، ومياسمها بلا مِتكّات، صرت ثمرة ناضجة، ولكنني فارغة من البذور. فراغ رهيب! كرهت الرجال، بقدر حاجتي لهم. تعقدت منهم. ضياع.أسير بلا هدف.

زارتني يوماً على باب بيتي كلبة صغيرة. أشفقت عليها. قدمت لها صحناً من الحليب.. لعقته على الفور.. أخذتها. نظفتها، غسلتها بالصابون، جففت جسدها، أطعمتها لحوم معلبات.

ونظراً لشعوري بالعبث في كل شيء، فعندما أنهيت خدمتي المقررة، تقاعدت فوراً، وتفرّغتُ للكلبة، اشتريت لها طعام الكلاب من الدكان.. كبرت الكلبة ثم حملت، وولدت ستة جراء، والجراء الستة جمعوا حولهم من الحي ستة أصدقاء آخرين..

تكاثرت الكلاب أمام بيتي.. لم أعد أستطيع إطعامها.. نباحها أزعجني، وأزعج الجيران من حولي.. ضجوا لروائح أطعمتها الدهنية المنتنة، وبقايا العظام القذرة المنثورة على رصيف بيتي، وهنا

وهناك، اشتكوا للشرطة، جاءت الشرطة إلى الحي .. شاهدت الكلاب تسد الشارع أمام بيتي، فلم تستطع الاقتراب من المكان!

"أنا مسلّحة بالكلاب" ، قلت لهم:

"من يقترب، لا يلوم إلا نفسه! حياتي مع الكلاب متعة! عالم مدهش، مثير! فيه ضجة، وفوضى، ونباح، وأوساخ، وتنظيف، وأعمال كثيرة.. بعد الفراغ المخيف الذي انتاب حياتي، صرت مشغولة بتنظيف أوساخ الكلاب، ثم إطعامها، ثم مقاومة اندفاعاتها من جهة، ومقاومة اندفاعات انزعاجات الجيران من جهة أخرى.

لا يا غابريل غارسيا ماركيز، إن الكلاب ليست ذليلة، إنها وفيّة وصديقة! إنها تحميني وتشغّلني، وتهتم بي، أكثر بكثير من الطيارين والمضيفين الذين غازلوني، وسيروني في ركابهم، ثم خدعوني وتخلّوا عني. الكلاب ترصّ صفوفها حولي، ولم تتخل عني عندما جاءت الشرطة. الكلاب تتزايد من حولي، لدرجة أكاد معها أنفجر!

ما رأيك يا ماركيز ؟

لم أعد أتحمّل هذا الضغط الزائد من الكلاب!

أريد نهاية لهذا الضغط القاتل، أريد حلاً لهذه الديناصورات الصغيرة، المحبة لي. ومن الحب ما قتل يا ماركيز!

أريد سماً أضعه في أطباق طعامها، فاقتلها كلها في ليلة يفتقد فيها ضوء القمر. أريد أن أنفّذ مذبحة لا يمكن أن ينساها التاريخ.

أريد أن أقتل كل هؤلاء (الأحبة الكلاب).

أريد أن أمزّق قلبي، الذي لم يعد يطيق هكذا حياة !

أريد.....!

الجوع!

تباطأ صابر السعدون في حركة فرشاته، وحكّ فروةٍ شعره الأشيب، ثم توقف عن الدهان! كان يحدث نفسه بصوت مخدّر :

- أشعر بجوع شديد وأنا أدهن جدران بيتهم، لم أعد أميّز ألوان الدهان، من شدة الجوع.. تختلط عليّ الألوان بشعور سريالي، تمتزج الألوان في داخلي بالغثيان.. ليس بيني وبين أهل البيت أي احتكاك أو حديث. الاحتكاك الوحيد هو حركة فرشاة الدهان بالجدران.. إنهم لا يمرُّون من هنا، وكأن البيت خاوٍ على عروشه.. ولكل منهم ؛ ولداً كان أو بنتاً، أو أباً أو أماً، عرشٌ خاصٌ به، من عروش السلطة.. هؤلاء الاغنياء ليسوا متسلطين، بل إنهم غير متواجدين أصلاً ! كل مشغول بحاله.. والمتسلّط الوحيد عليّ هو أبوهم ؛ رب البيت الذي قد يدفع، وقد لا يدفع لي أجور عملي، وذلك ليوفر من هنا ومن هناك، وهو مقتنع أن هذه الاقتطاعات، عندما تتجمع، تشكّل ما يسمى عنده رأس المال.. وهو منذ زمن بعيد يجمع كثيراً من هذه الاقتطاعات، فيكوّن رأسمال له.. وهكذا أصبح رأسمالياً، وبقيت أنا عاملاً، أدهن هنا وهناك، ولا آخذ سوى بضع ليرات، لا تكاد تسدُّ أفواه الجياع من أفراد أسرتي.

لم تنفعني شهادتي الجامعية، كنت مصراً على دراسة السياسة والاقتصاد، وعند التخرج، قالوا لي : " السياسة لها عائلاتها، وأنت لست..." قلت : "لا ضرورة للسياسة، ولكن سياسة (الطعام أولاً)، فهذا بيت وله مصاريفه! وهذه فاتورة ماء، وتلك فاتورة كهرباء، وهذه أجرة منزل، وتلك فاتورة هاتف." لكن هاتفنا معطّل منذ ستة أشهر، بسبب عدم تسديد الفاتورة. وأبو سمير صاحب دكان البقالة يضايقنا، بسبب تأخرنا في سداد ثمن المشتريات.. لم يعد يبيعنا بالدين.. توقفت عن تدخين السجائر الرخيصة، ليس إيماناً مني بالبيئة والصحة، ولكن بسبب شح الموارد، وضغط الحاجة..

على بوابة حديقتهم لافتة، مكتوب عليها :

(احذروا! هنا كلاب شرسة)! لم أفهم ؛ هل أصحاب البيت هم الكلاب الشرسة، أم أنّ الكلب المدلل هناك تحت المظلة، هو

الكلب الشرس! مرّت شابة جميلة، وجهها رائع الجمال، أثار شهيتي، أبيض محمر ممتليء، يشع جمالاً! مثل رغيف الخبز.

الجوع في أمعائي ألم، وفي غدد جسمي اعتصار ومعاناة، وفي خلايا جسدي انهيار.. كان أبي رحمه الله يقول :

- (الجوع ذَلاّل، والعطش قَتّال) وأنا الآن أشعر بالذُلّ، وأتلفَّت حولي، أتحسس مصادر الطعام. ضعُف أدائي، وصرت غير قادر على الاهتمام بجماليات الدهان. انهارت الفنون في تفكيري، لأن خلايا عقلي الآن كلها متهاوية منهارة، كالازهار الذابلة بالعطش. عند زكريا تامر، تحولت النمور في اليوم العاشر الى قطط ذليلة، بسبب الجوع، وأنا الآن أتحوّل الى فأر ذليل بسبب الجوع. ابني شعبان يطالبني بشراء حذاء رياضي، قال إنه مطلوب منه في المدرسة، وابنتي وردة تطالبني بثوب مدرسي، قالت إن ثوبها الذي تلبسه مهترىء من الخلف، وزوجتي بدور تطالبني بدواء لصداع الشقيقة، يكاد يفصل رأسها إلى شقين، وأنا أذهب إلى العمل دون إفطار، لأوفر لهم الطعام! فأنا قبلت أن أقوم بدور الأب، رب البيت، والأم متورطة في تربية وخدمة سبعة أطفال (قطاطيم لحم).

ها هي الخادمة السيرلانكية تطلُّ من بعيد، ومعها طبق من الطعام... إنهم ومع ذلك أناس، وابناء ناس، أعني بني آدم، لا شك إنهم يشعرون.. الطعام طعام ! قال عمر بن الخطاب (كاد الفقر أن يكون كفراً)، والجوع كافر، وأنا الآن أعود إلى الايمان مع طبق الطعام هذا المتّجه نحوي.. الطبق بين يدي الخادمة يتضخم في ناظري، فلم أعد أرى في الكون غيره.. ركزت نظري يوم (زاغت الابصار، وبلغت القلوب الحناجر!) الطعام يتقدم، محمولاً على طبق نحوي! يتضخّم حجم اللّحم الذي يعتليه.. وها نحن العرب غير الديمقراطيين، نتمتع بخدمات نساء سيريلانكا والفلبيين، الحضاريات الديمقراطيات العاملات، اللّواتي تستحق كل منهن جائزة الدولة التقديرية في العمل، وتحمل المسؤولية، والأمومة، والرعاية، والتمريض.. ها هن يخدمن بإخلاص نساءنا الخاملات المتبجحات، المتعفنات داخل سراويلهن، الآمرات الناهيات.. والكون منقلب ومغبّر، وهذا الغبار يسبب لي الحساسية، ويشعرني بالجوع، غير واضح المعالم.. والخادمة تتقدم نحوي بالطبق الطائر.. ذكّرني طبق الطعام بالأطباق الطائرة، التي كانت تنزل من السماء إلى الأرض، فتستكشف أهل الأرض، ثم تعود إلى السماء، على شكل كتلة ضخمة من الاشعاعات المتوهجة بالنور. ثم نكتشف بعد ذلك، أنها أجهزة استخبارات إمبريالية، لا أطباق ولا ما يحزنون!

طبق الطعام يتقدم نحوي متوهجاً بنوره، وهو يكبر في ناظري، صار مثل طبق التلفاز الفضائي، يتضخم مثل الأطباق اللاقطة الكبيرة . والخادمة تقترب..

أسقط صابر فرشاة الدهان من يده، لم يكن مهتماً أين سقطت، في دلو الدهان، أو على الجرائد المفروشة على الأرض، فسواء سقطت على السجاد أو على البلاط، أو سقطت في الجحيم، فهذا لا يهم! كل ما همّه، هو لعابه السائل، مثل لعاب كلب (بافلوف) الروسي، الذي كان يسيل، كلما رنّ الجرس معلناً قدوم الطعام.. ولكنه لا يسمع الجرس، بل يشاهد الطعام يقترب أمام عينيه، وهو يحاول أن يمدّ يديه الاثنتين معاً، ليأخذ منها الطبق، متلهفاً، وإنما بأدب جم، وخجل طبعاً !

ولكن الخادمة مرّت من أمامه وتجاوزته، واستمرت بسيرها، بينما عيناه تلاحقانها، وجسده يدور إثرها، ويتبع خطاها، وأعصابه متشنجة باتجاهها، وأنسجة جسده المخذولة كلها تنتظم متوازية خلفها!

سارت الخادمة فوصلت إلى الكلب، ووضعت الطعام أمامه.. تثاءب الكلب، وشمّ الطعام، وتمطّى، ثم نظر إلى الجهة الأخرى، دون اكتراث.. ثم عاد فتذوّق طعم اللحم بطرف لسانه، دون شهيّة، بينما كانت نظرات صابر وأعصابه، وخلايا عقله كلّها باتجاه الطعام !

الخريج.

كان الحارث السبهللي يتأمل نفسه في المرآة، لم يكن يظهر منه سوى خلفيّة ملابسه السوداء، في محيط مظلم، يغلف المكان بهالة من الغموض المكفهر! كان يحدث نفسه حديثاً محزناً :

- للأسف صرت الآن خبيراً بهذه الحياة المعقّدة أيها الحارث، صرت تعرف أن تأكلها وهي والعة! قالت لك المديرة روزا :

"أنت تعرف كيف تأسر النساء يا حارث !"

صرت تفهم كيف تتفحص وتعاين، وتنتقي حسب أحدث المواصفات، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، هذه المرأة، كعبا قدميها مستديران من الخلف، (يقطعان البركة من البيت)، وتلك الحسناء، عيناها بحيرتان زرقاوان! وأنت فيهما تغرق تغرق! النهدان الضخمان ليسا جميلين، والضامران أيضا! وكما قالت الراقصة اللولبية مهلبية:

"خير الأمور الوسط"! قال لي أبو ابراهيم، عندما ذهب ليخطب عروساً لأبنه إبراهيم :

"وجدنا صبية جميلة، ولا ينقصها شيء، سوى أن نهديها كبيران."

فسألته:

" وهل النهدان الكبيران، يعيقان زواجاً يا أبو ابراهيم ؟!" فأجاب بفكه المرتخي :

" يا عمي، النهدان الكبيران يترهلان بسرعة، وأما النهدان المتوسطا الإمتلاء والاستدارة، فهما يبقيان ممتلئين نضارة وصلابة، فترة أطول من العمر." ومن يومها عرفت مواصفات النهدين، ومن امرئ القيس، عرفت أن بطن المرأة الضامر، أجمل من الكرش الممتلئ، لقوله :

(هصرت بفودي رأسها فتمايلت عليّ هضيم الكشح ريَّا المخلخل !)

ليس هذا هو بيت القصيد. فأنت يا حارث صرت خبيراً بكل شيء ؛ ففي تجارة الأراضي، صرت تميز بين الوسطاء الصادقين والنصّابين، الذين يبيعونك، أنت وأموالك، وأنت مثل الأطرش في الزفّة !

ومنذ أن بنيت بيتك وتاجرت بالعمارات ذات الشقق السكنية، صرت تعرف كيف تتحاشى غشَّ المهنيين والحجارين والبنائين و.. صرت تعرف كيف تتخلص من جشع سائقي السيارات والشاحنات والآليات و.. للأسف صرت الآن خبيراً بكل شيء يا حارث.. صرت تعرف كيف يصل الأشقياء المستوزرون إلى سعادة مناصبهم، وكيف يخرجون من بين الثوار والمناضلين والرافضين ؛ ويزاودون عليهم، ثم يبيعون رفاقهم في سوق النخاسة! ثم يقعدون على بطونهم خانعين! صرت تعرف كيف يركع الشرسون المستقوون، الجميلات من نساء المستضعفين في الأرض، فيأتين إليهم صاغرات راكعات، طالبات مساعدة مؤونة الشتاء لأطفالهن، حيث لم يبق أمامهن سوى أن يأكلن بأثدائهن كالإمات.. للأسف صرت تعرف كل شيء يا حارث ؛ صرت تعرف كيف يحقق التجار زيادة أرباحهم، وتعرف من أين تستورد؟ وإلى أين تصدر ؟ وصار معك رأسمال، يجعلك قوياً في السوق، ومطاحنا للحيتان الكبار، كل في تخصصه..

في المرَّة القادمة، لن يضحك عليك أحد.! ستعرف كيف تسافر لطلب التجارة والسياحة ولو في الصين، وستعرف كيف ستقتصد، وتنفق أقل المصاريف، وتتعرف هناك على كل المعالم الصناعية والتجارية والسياحية التي تريد معرفتها! سيكون معك مرافق أو مرافقة، تدلك على كل شيء ترغب أن تشاهده، أو تحب التعرُّف عليه، وستفتح أمامك كل متاحف البلاد، وتزور برفقتها نادي الجميلات النائمات..

صرت خبيراً في السوق المالي، وكيف تدرس حال الأسهم الهابطة، ثم تشتري الصاعدة منها، وتعمل لها دعاية، فترفع أسعارها، ثم تبيعها دفعة واحدة.. صارت السوق المالية تقوم عندما يقوم الحارث، وتقعد عندما يقعد الحارث.. صار مجرد مرورك باتجاه سهم، يرتفع سعره فوراً، ومجرد سخريتك من سهم، تنفخ عليه فينخفض فوراً..

صرت خبيراً بالنقابات والجمعيات والإتحادات، وكيفية الصراع الحزبي والجهوي، والفئوي والعنصري والديني، والسلطوي والثقافي، والشخصي والمزاجي، داخل كل مؤسسة! وللأسف صرت الآن تعرف كيف تعوم داخل هذه المؤسسات، وتحقق أهدافك. صارت لديك القوة لدعم هذا، والتآمر على ذاك، وإنجاح هذا،

وإسقاط ذاك. صرت خبيراً في الأفراح والأتراح، وتعرف أن البقاء لله وحده. صرت تشارك في جاهات الخطوبة، وتحضر الأعراس، وتراقب الأطفال منذ ولادتهم، وحتى تخرُّجهم من المعاهد أو الجامعات، وعملهم في الميدان، صارت لديك الخبرة في تشكُّل شخصيتهم وهم يكبرون، وكيف يتغيرون أثناء المهنة ؛ فتنبت لبعضهم أزهار، وللبعض الآخر أشواك، أو حساسية قد تؤدي للتسمم !

للأسف يا حارث إنك صرت الآن تعرف كل شيء عن مهنتك، وتعرف شيئاً عن كل شيء، صرت تعيش الآن(من غير ليه !)، صرت الآن تعرف كيف تستخدم أرقى الحمامات، والجاكوزي والبخار والساونا، وبرك السباحة ورياضة النوادي، والكمبيوترات والهاتف النقّال، وتعرف جيداً ركوب السيّارات والطائرات، والفرق بين التدريس الحكومي، والتدريس الخاص، وبين مياه ينابيع أيام زمان النقية، ومياه اليوم الملوّثة بالمجاري في كل مكان.. صرت تعرف (طعم فمك) كما يقولون.. وتميز أنواع الأطعمة والمشروبات، والفواكه اللّذيذة، وغير الشهية، الصحية منها، والمضرة..

للأسف أنت الآن تكتشف أنك ذو معرفة تامَّة ! فاذا طلبت الآن شيئا، فسوف تطلبه حسب الأصول. لن تكون مغفلا بعد اليوم، فلو خطبت عروسا لك اليوم، فلن تقع في المطبِّ الذي وقعت فيه، عندما وافقت على خطوبة زوجتك أم أولادك، سوف تكون عروسك الجديدة بنت أصول. ستكون قادراً على توظيف نساء الحي، للبحث عن أجمل فتاة، أهلها محترمون ومتدينون وأغنياء، وستعيش مع الفتاة، ما لا يقل عن سنتين من العلاقة الشخصية القريبة، قبل الزواج منها، للتعرف على أخلاقها وسلوكها وعقليتها، وإدارتها وذكائها، وتدبيرها المنزلي، وتطلعاتها وطموحها، ومدى نظافتها، وستتأكد ما إذا كان لعرق جسدها رائحة، وما إذا كانت تشخر أثناء النوم، وما إذا كانت لئيمة وحاقدة، أو مسامحة فرائحية، أم نكدة، شغّيلة أم كسولة، تفضِّل العمل المعطاء، أم الركون إلى البيت، والقعود فيه، تحت مظلة الشغّالة والحارس.. ستعرف عنها كل شيء ؛ هل لها توجهات للعشق خارج المنزل؟ أم إنها بريئة، وقانعة في عشقك، أنت وحدك لا شريك لك! للاسف الآن أنت تعرف كل شيء! عندما تخطبها، سيكون عدَّادها على الصِّفر، مثل السيارة المشتراة من الوكالة، عدَّادها على الصفر (عالزيرو) كما أجابك (حلاقك الخاص) ذو الخمسة وسبعين عاما، عندما حسدته على عمره قائلاً :

"عمرك خمسة وسبعون عاما، وما زلت تقف خلف الزبائن، وتحلق لهم ؟" فأجابك قاصداً إغاظتك:

"وسأتزوج فتاة، ابنه ثمانية عشر ربيعا، ويكون عدَّادها (عالزيرو)"

من ذلك العجوز، فهمت معنى عبارة (عالزيرو)!

للأسف إنك الآن تعرف كل هذا يا حارث، وأنت تنظر إلى المرآة، فتشاهد التجاعيد تتشابك على وجهك، والشيب يصبغ شعرك، وعينيك منطفئتين، وسماكة نظَّاراتك، كسماكة نعل حذائك، وعكَّازك المدعَّم بطبعة جلدية من أسفل، تمنعه من الانزلاق، كي يحميك من الوقوع، أيها العجوز المعتّق !

نسيت يا حارث أنك الآن على أبواب الثمانين خريفا، وأنك تتعاطى أدوية كثيرة للمحافظة على بقايا تواصل عظامك بلحمك، وشراييناك وقلبك، لتبقي روحك على قيد الحياة، وأن زهير بن أبي سلمى، قد قال فيك بيتاً من معلَّقته ذائعة الصيت:

(سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً، لا أبا لك يسأم !)

نسيت أيها الحارث، أنك وقد عرفت كلَّ شيء، فأنت على أبواب التخرِّج النهائي !

انتبه الحارث إلى أنه لا يزال واقفاً أمام المرآة، فحرَّك عصاه، ذات الطَّبعة الجلدية من الأسفل، وثبَّتها على الأرض أمامه، كي لا يتزحلق، ثم مشى مبتعداً، ويده ترتجف بها !

مجلة الموقف الأدبي السورية – 5- 2004

الخوف!

صدمة مروعة أصابت أم هشام، صاحبة البيت، عندما شاهدت فأراً في مطبخها، شعرت بأن كتلة لحمية ذات مخالب، وأنياب سامة، ستقفز على عنقها وتخنقها، بعد أن تسممها بالعضّات المميتة! صرخت صرخة حادة، تتضاءل معها أصوات سيارات الاسعاف، وأجهزة الانذار الحديثة! هكذا صرخت:- فاااااااااااااااااااار !.. هرب الفأر، واختفى تحت الثلاجة، ثم ظهر من جهة أخرى، وقفز من فتحة الشباك الأرضي إلى خارج المنزل. كان الفأر فخوراً بأنه أرعب المرأة! شاهدها وهي تنتفض في مطبخها، وكأن بها مسّاً كهربائياً. ترتعش وترتجف وتصرخ. شعر بنصر كبير. شعر أنه موجود، وله كيان! أحس أنه شخصيه ذات أبعاد! وأن له تأثيراً في المجتمع، يستطيع به أن يرعب الآخرين! حتى لو كانت ربة المنزل! قال لنفسه:"أنا لست قليلاً" ضحك كثيراً وهو يعيد المشهد الدرامي. مشهد المفاجأة. الرعب!" نساء لا يوقفها عند حدٍّها، سوى الخوف!" هكذا قال "أنا أخيف، إذن أنا موجود!"صار يتمختر بمشيته، وكأنه يسير على ذيله... وفجأة انقلبت الدنيا رأساً على عقب، واحمرت الأشياء أمام عينيه! خطر محدق ! إنه يكاد يموت ! قط مستشر يقترب منه! شاهد شوارب القط، كأنها جناحا نسر، يقترب منه، أنيابه متحفزة لتحفر لحمه، ولسانه يتلمظ للعق دمه. رعب لم يشاهده في حياته. لم يعرف كيف تصرف بلحظة واحدة، ودون أي تفكير، انطلق كالسهم باتجاه أضيق ثقب، لا يستطيع القط دخوله. التجأ الى ذلك الجحر، غير مكترث إن كان جحر بيت نمل، أو بيت للقرود. المهم أنه تخلّص من ذلك القط المدمر!.. الرعب شعور فسيولوجي يهز الجسد! لو وُضع الشخص على آلة تعذيب كهربائية رجّاجة، لما شعر بالخوف، كما يشعر في لحظة كهذه.. لحظة ما بين الحياة والموت.. إنها أخطر بكثير من السير على حبل السيرك في السماء، لأن إمكانية الوصول بسلام في السيرك واردة، ولكن وقوف الفأر بسلام أمام القط، دون أن تنتهي حياة الفأر برمشة عين، أمر غير وارد. الخوف شعور مدمر .إنها اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت! لا يمكن أن توصف، ولا يمكن أن تنسى!.. عرف القط القذر أن الفأر فرّ من أمامه، وأنه خسر وجبة لحم شهية، وخسر تحدياً بينه وبين الفأر، ولكن شعوره بالانقضاض على الفأر، وهروب الفأر منه، عملية رياضية أعادت له ثقته بنفسه. إنه يهاجم طرفاً آخر يهرب منه. إنه ينقضُّ كالنمر! ويحاول أن يدمر الآخر، إنه موجود! هكذا قال لنفسه :"أنا أدمر، إذن أنا موجود!".. ترى هل هذا هو سبب التدمير والقتل الذي تقوم به

الامبراطوريات الكبرى، الحضارية الديمقراطية، التي تخضع لها (حرب النجوم)، فتهاجم شعوب الدول الصغرى، قادمة من أعالي البحار، ليس لسبب، سوى تحقيق شعور بأنها ما تزال مهابةٍ، وأنها لم تهرم بعد؟ هل يقول الامبراطور الديمقراطي جداً:"أنا أدمرٍ، إذن أنا موجود؟" أنا أسحقهم، إذن أنا موجود؟ فكّر القط كثيراً بهذه الأفكار السخيفة، فانتفش شعر جسمه، وشعر بالانتصار والخيلاء، وصار يمشي منفوشاً مثل ديك الحبش بعد تلك العملية الانقضاضية. ولكن فرحته لم تستمر، إذ فوجىء بانقضاض كلب شرس باتجاهه. الكلب لا ينوي أكل القط، ولكنه يشعر بالغيرة منه! قد يكون السبب أن القط يعيش داخل المنزل مستأنساً أكثر من الكلب، وأنه ينام بالأحضان أكثر منه؟ هو نفسه لا يعرف لماذا يصير عدوانياً إذا شاهد قطاً! وحتى إذا لم يأكله، فإنه لا بد أن يعضّه عضّة تجيب أجله! والقط يرتعب لدى مشاهدته أي كلب، فما بالك إذا رآه ينقض عليه، دون مقدمات؟ ..ارتعب القط، فأفرزت غدد جسمه أنزيمات القوة، فصار كالنمر في القفز! ولكنه قفز الهارب من بوتقة الموت. انطلق بسرعة النمر، وتوارى خلف أشياء كثيرة مرّ بها، إلى أن نجا من هجوم الكلب. فقال الكلب لنفسه :" عالم، لا ينفع معها غير الخوف! أنا أتكهرب إذا شاهدت قطاً! لا أسمح له بالتواجد في ساحتي! هذه المنطقة مخصصة لي. أنا الوحيد الذي يتواجد في هذه الساحة بلا منازع!" ونبح نباحاً تكرر عدة مرات، شعر معه بقوة هائلة، وارتفعت معنوياته، بعد أن مرّت عليه فترة من المزاج السوداوي، إذ شعر في الأيام الأخيرة أنه غير مطلوب، وأنه لم يعد يساوي شيئاً ؛ فلا حاجة لكلاب الحراسة، في زمن جرس إنذار الأمن، ولا طعام في زمن تجوع فيه حتى الطبقة المتوسطة، فلم يبق في العالم سوى بضعة ملياردیرات، أغنياء لدرجة خرافية، وباقي العالم "رعاع!" لا يملكون من يطعمهم، فكيف سيطعمون الكلاب؟ كان لديه شعور بالإحباط الشديد، لم ينقذه منه سوى مرور القط، فاضطر لمهاجمته والانقضاض عليه، وأن يفرغ كل عقده واحباطاته، في ذلك الجسد القميء... ترى هل تفرغ الدول العظمى عُقدها وإحباطاتها وفشلها الاقتصادي والاجتماعي، بهجومها غير المبرر على الدول المستضعفة، فتسحقها، لتشعِر شعبها بأنها ما تزال مسيطرة على الوضع؟ شعر أنه مغوار. كلب في فمه أسنان وأنياب!..ولكن هذه الفرحة لم تتم، حين فوجىء أبو هشام صاحب البيت، بالكلب الغريب في حديقة منزله، مما اضطره لمهاجمته بعصاً غليظة، فهرب الكلب مذعوراً مخذولاً ! شعر أبو هشام بأنه يخيف الآخرين، وأنه ما يزال فيه رجولة تخيف الكلاب والوحوش.والناس في السوق، كثير منهم كالوحوش، يقتنص

بعضهم بعضاً! وهو الآن ينقض على الكلب. لاشك أنها شجاعة ؛ أن تهاجم كلباً شرساً غريباً عن الحي. تشعر أنك لا تزال قادراً على حماية نفسك، وحماية أفراد اسرتك، وحماية الآخرين المطلوب منك حمايتهم. لا أزال في الخدمة ! وفوراً تغيرت معنويات الرجل، وقذفت الغدد الصماء في دمه كثيراً من عصارات السعادة، فارتاح جسده، وضحك لأول مرة منذ.. شعر بغرور كبير، وتوازن في مزاجه فقال لنفسه: "أنا أهاجم، إذن أنا موجود ! أنا ما أزال قوياً، ومسيطراً على الموقف.!" هكذا فكر أبو هشام، وهذا التفكير لم يدم طويلاً عندما قابلته أم هشام وقالت لـه:" والله ما انت عارف تدبر نفسك! كل الرجال يجمعون الملايين، وأنت تجمع الملاليم! يا رجل جاءنا اليوم جابي الكهرباء، وأنذرنا بقطع الكهرباء عن البيت، إذا لم ندفع، وتراكمت علينا كل فواتير الهاتف والماء، وأنت لم تدفع ضريبة المسقفات لمنزلنا منذ ثلاث سنوات، والأولاد صاروا على باب التخرج من المدرسة، ويريدون تعليماً في الجامعة ! يا رجل اعمل شيئاً لمضاعفة دخلنا! اعط دروساً خصوصية للطلاب، معك الليل بطوله من بعد الظهر!) .. شعر أبو هشام بالخوف من المستقبل، لم يستطع أن يجيب أم هشام، كان قد عاد من العمل عند العصر، تغدى ثم قام يجرُّ نفسه، وتوجه إلى سوق العمل، باحثاً عن مصدر رزق، يشبع به هذه الزوجة، القاعدة في البيت، للاستهلاك والحديث مع جاراتها بالهاتف بلا انقطاع، بينما هو مطالب بتسديد الفواتير! شعر أنه مهزوم في هذه الحياة الكثيرة التكاليف، وهذا المجتمع الذي لا يرحم! بينما استعادت أم هشام معنوياتها، بعدما سمع أبو هشام كلامها. شعرت أنها صاحبة الكلمة المسموعة في هذا المنزل. وقالت لنفسها : "أنا أهيمن، إذن أنا موجودة" شعرت بكيانها وبهيبتها، وبأنها شيء مهم، وأن كلامها لا ينزل على الأرض أمام زوجها، وهذا كله أنساها الخوف المرعب، الذي شعرت به صباح اليوم، أمام ذلك الفأر اللعين!

انتخابات نسائية !

بكت ناريمان كثيراً، عندما سقطت في انتخابات مجلس النواب، كادت أن تمزق شعرها، الذي كان قبل دقائق ممشطاً ومصففاً على أجمل ما يمكن! لطمت خدّيها الذين كانا مدهونين بأجمل صباغات ملونة، فاختلطت الألوان على وجهها، فصار مخططاً ومبقعاً بالأحمر والأخضر والأزرق، وجمعت أصابعها في محجري عينيها الزرقاوين المحمرين، والدموع تنهمر منهما، وكادت أن تفقأ عينيها كما فعلها أوديب الملك، أيام زمان ! كانت تتألم بحرقة، وهي تكلّم نفسها بصوت عالٍ، وتؤشر بيديها :

- هؤلاء الرجال متسلّطون، عشائريون، انتهازيون، قساة! ولا يحترمون المرأة! كنت أعرف ذلك! ولهذا رشّحت نفسي نائبةً عن المرأة، فعلى الأقل، لو لم ينتخبني الرجال الأنانيون، فإن أكثر من نصف الناخبين هم من النساء.. ستنتخبني النساء، لأنني الأكثر تمثيلاً لهن، ولقضاياهن ومتطلباتهن وأحاسيسهن، فأنا أعرف مثلهن، كم تعاني المرأةُ في الحمل والولادة والتربية، وأن الأمّ مدرسةٌ.. وكم تضطهد المرأة داخل أسرتِها، وفي المنزلِ والعمل. وكم تستخدم المرأة! إنهم يفضلون المرأة خادمة، أو راقصة، أو عارضة أزياء، أو موظفة دعايةٍ وتسويق، وسكرتيرة، ودليلةً سياحية.. وفي اللّيل! يا إلهي كم يستخدمون المرأة في السياحة! كل هذا أنا أعرفه وأعانيه كما تعانيه المرأة، ولهذا رشحت نفسي.

كنت سأمثل المرأة بكل أبعادها في قضايا الجوازاتِ والجنسية. ما أزال أذكر عقدة الجوازاتِ، عندما منعني زوجي فضل، من السفر إلى المهرجان الشعري، لم يكن يحبُّ مدح السلاطين، ولا سفري بمفردي، بصراحة، كان يغارُ عليّ! ولذلك لم يسمح لي بالسفر.

" لا تذهبي إلى المهرجان!" قالها كلمة قاطعة مانعة! لم أستسلم لأفكارهِ التي عفا عليها الزمن. أجبته مستشرسة :

" أنت رجل غير حضاري، وغير ديمقراطي!" فأشار بإصبعه ، وكأنه يقلع عيني:" ما شاء الله حولك يا أم الحضارة والديمقراطية !"

أبعدت عيني عن إصبعه القالعة، وصرخت في وجهه:

" بأي حقٍ تمنعُني من السفر؟" فمد رأسه المستشر في وجهي كرأس التيس المناطح ، وقال:

" بصفتي زوجِك، وأنني أنفقُ عليكِ من عملي وتعبي، وكونكِ لا يحقُّ لكِ السفرُ إلا بإذني! بصفتي وليُ أمرك!" قلت وأنا أرمي مؤخرتي على المقعد :" هذه الحقوق ولّت، ولم يبق منها أثر، إلا في عقلك !"

انتهى الحوار مع زوجي فضل، فأنا لا أرغب في محاورته كثيراً، وأرغب أن تكون لي شخصية مستقلة، ولهذا رشّحتُ نفسي للانتخاباتِ النيابية.

ما زلت أذكر صديقتي مها، التي سافرت هي وزوُجها وأولادُها إلى استراليا، لأنها لم تستطع أن تمنح جنسيتها لزوجِها الغزّاوي ولأولادها. بقي زوجها وأطفالُها أجانب في بلدها، فاضطُّرت للهجرةِ معهم، ليحصلوا كلهم على الجنسيةِ الأستراليةِ هناك. رشّحتُ نفسي، لأنوب عن أولئك المظلوماتِ .

بكت ناريمان كثيراً عندما سمعت خبرَ سقوطها في الانتخابات! ومرت في مخيلتها سحابة من الصور الانتخابية. كانت تشاهد امرأة منتخِبة تحاور مذيع قناة تلفازية فضائية، وهي تضع راحة يدها اليسرى على عضلة ذراعها الأيمن المرفوع على شكل(..!) وتعرض عضلاتها، وتقول :

"نحن النساء سننتخب الرجل، لأن الرجل يبقى رجلاً لكل المهمات!" قالت ذلك وهي تقلد عضلات الرجل، ثم انقطعت الصورة الإخبارية.

تلك الصورة لم تبرح مخيلة ناريمان! ترى لماذا تنتخب المرأة رجلاً؟ ولماذا لا تنتخب بنات جنسها؟ هل تغار المرأة من المرأة ؟

" هذه السمراء القصيرة، ليست أجمل مني!"

" هذه المغرورة بجمالها، والتي أكلت منا كل الرجال، تريد أن تأخذهم منا داخل المجلس أيضاً ! والله لن تفرح بها !"

"هذه الطبيبة التي فشلت عيادتها النسائية الخاصة في استقطاب النساء، تريد أن تنجح في الانتخابات؟ والله لن تفرح بها!"

" هذه ....وهذه .... وهذه .....!"

"طيب! والرجل أيضاً، ألا يغار من الرجل، ويتنافس معه ؟ إذن أين يكمن الخطأ؟ وهل المجتمع ذكوري بطريركي كما يدّعون؟ ولكن، لماذا لا تكتب المرأة اسم امرأة مرشحة عند الاقتراع السرّي، وليس اسم رجل؟" راحت تحدث نفسها ممقوتة:

" وهل الرجل أكثر دهاءً من المرأة، فيأكل بعقلها حلاوة، فتنتخبه، وتترك مثيلتها، أم أن المرأة فعلاً لا تستحق دور النيابة، وسوف تقوم داخل المجلس بالحديث عن الغسيل والطبيخ والنفيخ، والحفاظات الواقية، وقضايا التجميل، وماكس فاكتور أولاً، وتنسى السياسة والصناعة والتجارة والزراعة، والثقافة والوطن؟" كادت أن تجن، على تلك النتيجة،وها هي تكلم نفسها:

"هل عضلات الرجل البارزة من جميع الجهات، والتي فضحتها تلك المرأة بحديثها التلفازي، تؤكد دوره الفاعل، في جميع الجهات، فتبقي للمرأة دور المتلقي، في كل شيء ؟ وهل الرجال قوّامون على النساء، كما يدعون؟ فديننا قال :(الرجال قوامون على النساء، .... بما أنفقوا من أموالهم .) وذلك يعني أنه إذا أنفقت المرأة على الرجل، فإنها قوامة عليه، لأن القِوامة، مرتبطة بالإنفاق، وليست مجردة !

كانت ناريمان تعرف أنها ليست النموذج، فهي لا تنفق على زوجها وأولادها، بل زوجها هو ال.. ولذلك لم... ومع ذلك فهي عنيدة. لم تكن تريد أن ترى نفسها وهي تتهاوى وتنهار، فقررت النهوض والتصرف، وكأن شيئاً لم يكن، وحاولت رد الاعتبار لكيانها الاجتماعي.

قال لـها محاميها الخاص محمود الشلبجي :

" لا تقلقي يا ناريمان، سأتابع لك كل أوراقَكِ البنكية، والرُّهوناتِ التي عملتِها، للحصول على قرضٍ مصاريفِ الانتخابات." كان المحامي مهتماً بأوراقها، وعقودها لتبقى قانونية. واتصل بها طبيبها إبراهيم أبو الشوف، الأخصائي (نسائية وتوليد) قائلاً:

" اذا اكتأبتِ، فقد تُجهضينَ الجنين! اصنعي الفرح، إنسي ما حدث." كانالطبيب قلقاً على جنينها الذي أهلكها، لكثرة ما عملت تحاليل وأنابيب، وإجراءات طبية، لا أول لـها ولا آخر، حتى حصل الحمل.

ونتيجة لنصائح المستشارين الذين يحومون حولها مثل طيور النورس التي تسابق وتلحق سفينة البحر، بحثاً عن ... كان ردّ فعلها، أنها دعت عدداً من الشخصيات البارزةِ في المجتمع إلى عشاءٍ في منزلها، وكان من بين المدعوين، عدد من الوزراء السابقين، والمستوزرين لاحقاً، ورجال الأعمال المعروفين .

أخذها سائقُها أبو الشوارب، الذي يقود سيارَتها بجدارةٍ فائقة، إلى مصفِّفِ شعرها (أنطوان سركسيان) فسرّحه لـها على أجمل شكل، فهي تثق بالرجال كحلاقين ماهرين: إنهم أفضل من النساء الماشطات، وهي أصلاً لا تقص، أو تصفف شعرها، إلا عند الملعون

(أنطوان)، ذي الشوارب التي يقف عليها النسر، والعينين الجريئتين، الواثق في نفسه، وفي تسريحاته الجميلة، والذي لا يتوقف عن الكلام والثرثرة، وسرد القصص والطرائف، وهو يقوم بتجميل السيدات. كانت تعتقد أنه يفهم كيف يبرز جمالها، لأنه يرى جمالها بعيني رجل ذواق، وليس بعيني امرأة ماشطة، تغار من جمالها، فتخرِّب لها تسريحتها! وعلى الأقل فهي تشتاق لحكاياته وضحكاته الساذجة، والوقحة أحياناً، والتي تترك أثراً عند السيدات الضجرات من خنقة البيت والوحدة!

وبعد أن خرجت من عند سركسيان، ممشطة وشعرها مصفف، على آخر طراز، ذهبت إلى مصمِّمِ الأزياء (كُرباج نقاشيان)،فأخذت من عندِه الثوب الذي كان قد فصّله لها من عالِمِ (فرزاتشي)! وقالت لسائقِها أبو الشوارب : "هل تعرف أن أشهر مصممي الأزياء النسائية هم من الرجال، وكرباج هو فرزاتشي العرب!" فأيدها أبو الشوارب قائلاً : "يحقُّ لكِ يا سيدة ناريمان أن تثقي بالرجال، وليس بالنساء اللواتي لم ينتخبنك!"

ذهبت ناريمان مع (أبو الشوارب) إلى محل الحلواني الشهير (صنفور)، الذي كان يلبس رداءً أبيض، وطربوشاً أبيض طويلاً يخبط في السقف، ويتسلّح بابتسامة، لا تفارق شفتيه وهو يستقبل السيدة، ويفهم منها ما تريد، ويشرح لها ماذا يستطيع أن يقدم، فطلبت منه أن يقدم هو بنفسهِ الحلوى، في حفل عشاء الليلة، قالت (لأبو الشوارب) :

" صنفور هذا مشهورٌ بحلوياتِهِ. كان رئيسُ ركن الحلويات في مطعم فندق خمسة نجوم ببيروت، وأنا أثقُ بأدائهِ. يا إلهي كم هم ماهرون وفنانون هؤلاءِ الرجال! انظر إلى فناني العالم، كلهم؛ من ليوناردو دافنشي، إلى مايكل أنجلو وبيكاسو، وشكسبير وموليير، وحتى توم أند جيري، وميكي ماوس، ولوريل وهاردي، ودريد لحام ونهاد قلعي في دوري غوار الطوشة وحسني البورزان، واسماعيل يس، وسيد درويش، وعمر الشريف، ونجيب محفوظ، وجبران خليل جبران، و.. كلّهم رجال.

كان (الشيف إحسان) رئيس الطباخين في فندق صحارى ذي الخمسة نجوم، هو كبير الطبّاخين في مطبخِها تلك الليلة... قالت (لأبو الشوارب) :

" لا أعرف لماذا أفضِّل الرجلَ على المرأةِ ! وحتى لو كانت لديَّ سهرة، فأنا أفضِّل أن أسهر مع رجلٍ، على أن أسهر مع امرأة. ولكنني لا أقصدُ أنني كنتُ سأنتخبُ رجلاً، لينوب عني في مجلس النواب، ولهذا رشحت نفسي ممثلة للمرأة.

العرس الكبير

خيول برية ملوّنة جامحة، تتدفق من الجبال والسهوب، والمنحدرات الواسعة، باتجاهات مختلفة، وتنثر تحت أقدامها وخلفها أجيجاً من الغبار يعبق في الفضاء، تطاردها عصابات رجال الأبقار المتوحشين، بطاقياتهم وارفة الظلال، التي تقي رقابهم الحمراء من أشعةٍ الشمس، وبأيديهم سياط جلدية، تلسع ظهور الجياد المتهورة، لتحشرها وتجمعها في واد سحيق، وسيارات المشاركين في عرس عائلة الهوادري، تنطلق في شارع الضوء الأصفر، مكتظّة بأعداد من الركاب المحتفلين بالعرس البهيج، تتداخل سياراتهم مع سيارات موكب جنائزي مهيب.. لم يحقق أحد في القتل، ولم يُعرف من هو القاتل أصلاً، وكم عدد المقتولين، ولم يتم التعرف على الجثث، لأنها كانت(طعّة وقايمة) مفتتة بالانفجار الذي جاء من الغرب، والذي دمّر المكان!

جمعوا بقايا الجثث. كان فتات من لحومهم المتطايرٍ ملتصقاً بشبك البعوض، وبعضه ملتصق على عمود الكهرباء، ونتفٌ خلعوها عن رصيف الشارع، وعن حديد بقايا السيارات المفجّرة، وبسرعة جمعوها من ساحة الحمراء، ووضعوها في عدة بطانيات، ولفوها على عجل، ووضعوها داخل سيارة موتى بيضاء مكتوب عليها عبارة : (ولا تحسبن الذين قتلوا..) فقادت الموكب الجنائزي المهول. لم يناقش أحدٌ الموضوع، ذلك لأن الناس كانوا منشغلين بالعرس البهيج، ولم ينتبهوا للسيارات المارقة !

صفّارات ومزامير ، وصيحات وزغاريد أعراس، وصوت المقرىء الشيخ، يصدر من سماعة سيارة الموتى، فتتداخل وتمتزج مع أغانٍ فرائحية تصدح بصوت عال ؛

".. بلاش تزعل! إزعل، نُص، نُص!

يا ابني اسمعني، ما تدلّعني، تاخد عيني كمان !"

وكاميرات تصوير، تعلو سيارة تسبق سيارة العروسين، فلا تستطيع فرز صور موكب سيارات الفرح، من موكب سيارات الترح .

شوارع قاع المدينة غاصة بالسيارات. قالت لي جدتي صفاء :

"لا أعرف إلى أين تتجه كل هذه السيارات، وماذا (تزُق)؟"

وفعلاً يا أخي! انتبهت إلى أن سيارات مجنونة تتحرك في كل مكان، وكأن سكان الكرة الأرضية مهاجرون إلى عالم آخر خارج الأرض، أشكالهم مخيفة! هذا الذي يقود السيارة الزرقاء، يعض على غليون، ويخرج كوعه من الشباك، فلا يشاهد الناس غير شعر ذئب كاسر يغطي ذراعيه وصدره، وذاك الذي في السيارة الحمراء يبدو خنزيراً أكثر نتانة! الخالق الناطق! وتكاد رائحة جلده تصل إلى الناس الواقفين على الرصيف، ولكن بدلته الرسمية، وربطة عنقه، تلف الموضوع وتخفيه.. وتلك التي تربط شعرها المصبوغ باللون الذهبي، وتقعد في فم سيجارة متهتكة، تؤهلها لبؤة متمرسة. وذاك الضبع الأجرب الراكب إلى جوار سائق الشاحنة القميئة، عادمها كمدخنة قطار يحترق بوقود يخنق الجو، ويدهن السماء بالسواد.. والسائق وجهه مس‌تطيل، يضحك فاتحاً فاه، وأسنانه تطل من فمه، مثل أسنان الشاعوب الزراعي، ولسانه يتدلى مثل لسان كلب سلوقي،(وجهك يا عمرو فيه طول ، وفي وجوه الكلاب طول)، وذاك الضخم السمين الواثق في نفسه، الذي يقود الشبح السوداء، يشبه أحد دببة الغابة، منطلق نحو عمل ما، فإذا سألتني:

" ما هو؟" فسوف أقول لك :

" إني لست أدري! وحتى لو كنت أدري، فلن أبوح بسره، فأنا بصراحة حلفت يميناً بعد تلك الحادثة، أنني لن أفتح ملف أي سيارة شبح في البلد، لأنني لو فتحت ملفاً من هذا النوع، فسوف تنبعث منه مخلفات كيماوية ونووية، مثل التي طلعت من مفاعل (تشيرنوبل وديمونة)، على وزن (حسن ونعيمة) وعلى فكرة، أنا المراقب لهذه الأحداث، لم أحضر فيلم حسن ونعيمة، ولكنني هكذا أضربها على العمياني ."

السيارات محشوّة بالكيماوي،والفيزاوي، وبعضها حبلى بالبيولوجي، والمورفولوجي والفسيولوجي، والسيكولوجي.. وضع من عندك أي شيء آخره (أولوجي)، وواحدة تسير مسرعة في وسط شارع التسعين، وهي محشوة بأصابع الديناميت، التي حصل صاحبها على جائزة نوبل للسلام، كل هذه السيارات شبحية الأم ، وأباتشية الأب، تنطلق متزاحمة في الشوارع!

أنت لا تعرف لماذا يكشر معظم السائقين عن أنيابهم، تراهم على حقيقتهم هكذا (بث مباشر !) وهم وحدهم داخل تلك العلب الصفيحية المتحركة، ولكن هذا السائق يضحك، بعكس باقي القادة، السبب أنه يرافق امرأة مكبوتة داخل منزلها، خرجت من البيت، لا تعرف إلى أين، إلى العمل، أو إلى السوق، أو إلى جهنم الحمراء..

فانفلتت من عقالها، وضحكت مع السائق، وقالت لـه: "إنني لم أضحك منذ مدّة طويلة !" ثم غنت لشادية : "وديني مطرح ما توديني! كل مكان وياك يرضيني!"

السيارات متزاحمة، تتخيل أن بداخلها أناس مهمّون، وذوي بأس شديد، ينطلقون بسرعة جنونية، ولكنك إذا ثِقبت صفيح سيارة من هذه العلب المتحركة، ودخلتها، فسوف تخمن أن بداخلها رجلاً أو امرأة، الشكل من بعيد لا يختلف كثيراً، فقد يكونان امرأتين أو رجلين، يتحدثان في أمور تافهة، ينطقان جُملاً غير مفيدة، لا معنى لها،(بالله ! صحيح ؟ هيك آخرتها! مش ناقصني! طيب كل...!) حائرين، لا يعرفان أين يذهبان ليقضيا حاجتهما، وإذا عرفا الطريق، فإنهما لا يعرفان ما هي حاجتهما! عالم مليء بزجاجات مطعوجة فارغة!

وبعد ازدحام شديد، في شارع ذي ثلاثة مسارب، انفك اشتباك سيارات الأفراح، عن سيارات الأتراح، وكانت هناك دبابات شرطة عسكرية ضخمة، وجديدة على آخر طراز، لها خراطيم ضخمة عملاقة طويلة، على شكل رافعات مشاريع العمارات العالية، تتحرك في جميع الإتجاهات، لتنظم حركة السير داخل المدينة! وفرقة دبكة، عدد أفرادها يتجاوز المليون، يدبكون في وسط ساحة الحمراء، بملابس مزركشة، تراثية فخمة، وطبول ضخمة، وأنابيب قماشية لنراغيل طويلة، طويلة، طويلة، يصل طول كل منها إلى مدى نظر زرقاء اليمامة. وتدفق وازدحام شديد على باب قاعة الأفراح، وألوان ملابس مزركشة، وملابس كاكية، تبقِّع الساحات، وأجساد نسائية بلا رؤوس، تهتز أثداؤها وأردافها، على أنغام سيقان وأرجل فلامنكية ولكنها مطبطبة، ورؤوس متزاحمة لنساء سافرات بلا أجساد، تتحرك في جوٍّ من الهواء الساكن الحار، الرطب الدبق.. تشاهد منها شعراً أسود، وأشيب، وبنياً، ورمادياً، وأشقر، وذهبياً، وأحمر، ورؤوساً محجبة، بأغطية مختلفة الألوان والأشكال، وكوفيات عراقية لرجال، تحوّل لونها من الأبيض والأسود، إلى الأحمر، لتوحي بليال حمراء، ونظّارات رجالية طبية، وشمسية في عز الليل الأسود، وعيون نسائية سوداء وبنيّة، حواجبها منتوفة ومسحوبة من مكانها إلى أعلى، لتعتدي على مساحات من صباحها الواسع، فتوسع منطقة العين، فيتغزّل بها المتغزِّلون، قائلين :

" والله إن عينيها بحر، والعاشق فيهما يغرق يغرق!" ولكن الحقيقة أن البحر الميت قد جف ماؤه، ولم يبق حوله سوى ملح الحاجب، مثل خط القلم على الورقة، وعدسات لاصقة ؛ خضراء وزرقاء،وعيون حمراء، على حواف جفونها قذى عيون، لونه أبيض مصفر، ورؤوس رجال صلع، ورؤوس يعلوها شعر كثيف، وذقون

يتدلى منها شعر غزير، وذقون حليقة، وفي الجهة السفلى، أحذية رجالية ونسائية، تتحرك في كل الاتجاهات، بعضها ذو مقدمة رفيعة طويلة، مثل رأس طائرة الكونكورد، وبعضها ذو مقدمة عريضة، مثل قدوم الحلاوة، وصندل بني مشبك للتهوية، تبرز من مقدمته أصابع طويلة، وكعب عريض قصير، مثل علبة التونة، اسطواني الشكل، وأكعاب رفيعة عالية، بارتفاع سيقان طيور اللقلق، وبعضها يسمونه ؛ كعب كُبّاية، وحذاء مهترىء مغبرّ، وآخر ملمّع باللون الأسود، وكعب امرأة ممتلىء استدارة، يقطع البركة من البيت!

وصوت يأتينا عبر سماعات تدوي في كل أرجاء المعمورة، يقرأ علينا عبارات من كتاب قديم، واندهش الراقصون، وهم يسمعون عبارات جديدة لم يسمعوها من قبل، وخافوا أن يكون في الأمر ملعوب.

وهذا أبو سامي الذئب، يلتقي مع صديقه اللّدود (أبو مسعف)، الذي فضح الطابق المستور قبل عشر سنوات، حينما قال : "يا جماعة هذا صديقي الحميم أبوسامي، أوصلني بسيارته إلى المطار مودعاً، وودّعني بقبلاته الحارّة، وتأكد من كوني قد سافرت، ثم عاد، فسرق مستودع مزرعتي، وقبضه الحارس متلبساً بالجريمة!" ها هما يلتقيان بعد عشر سنوات، بطناً لبطن! وبطن(أبو مسعف)ممتلىءٌ حقداً ! ولكن في هذا العرس المزركش!

وهذه تمام الثرثارة ما تزال تلعلع، وتستغيب كل نساء الأرض، وإذا لم تجد أحداً تستغيبه، فإنها تستغيب نفسها! ويبدو أنها من أيتام الحطيئة؛ الذي هجا كل الناس، وعندما لم يبق أحد يهجوه، هجا نفسه قائلاً :

أرى لي وجهاً قبّح الله شكله فقُبِّح من وجه وقبِّح حامله

وذكروا أنهم قد سحبوها من لسانها يوم ولدتها أمها، فصار طويلاً، من متر ونصف إلى مترين، ولكنها أحياناً تضبطه داخل فمها، وأحياناً يستعصي على الانضباط، فينفلت من بين فكيها! هذه السياط المرعبة، تحضر العرس، فتملأه صخباً، وتلوث الهواء بعباراتها المتزاحمة، الخارجة من بين شدقيها، وكأنها دخان أسود، يخرج من عادم سيارة خربة.

فيلة وأفراس النهر، وخراتيت، تقف في أراضي المستنقعات، وتقوم بتغميس ذيولها بالطين، ثم تضرب على أجسادها، ذات اليمين وذات الشمال، تطيينها اتقاء لسعات البعوض، ولتبريد هياكلها الضخمة من الحر، ولترطيب جفاف جلدها، وتلوّح بذيولها لطرد ذباب الخيول اللّزج، الملتصق على فوهات مؤخراتها، وتحت ذيولها. والخيول الجامحة المتناثرة في السهوب، تقاوم جمعها في بؤرة، أو

بوتقة واحدة، وتنجح تدريجياً في المقاومة، وتحقق تقدماً في المواجهة، أو الهروب من وجه التيار، (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .) ولكنه لم يشأ.. وضحكوا كثيراً عندما سمعوا ذاك القوزاقي، وهو يقول لقائده بكل خشوع وطاعة:

" أنت يا سيدي ثور كبير، كبير! ونحن ذباب تحت ذيلك!"

كانت الديناصورات تستحم على شاطىء البحر الأبيض المتوسط! تغوص ثم ترتفع، فتصل رؤوسها إلى عنان السماء. وجرافات عملاقة، تأتي من الغرب، بأعداد هائلة، وتخرج من عمق البحر، ثم تتجه لتجرف العمارات! كل العمارات المزروعة بغزارة على الشاطىء الممتد من المحيط المتجمد الشمالي، وحتى المحيط المتجمد الجنوبي، فتهيلها، وتتحول العمارات إلى صفائح كرتونية متكسرة ومتناثرة في الفضاء، ثم تتساقط تحت أقدام الدبابات المجنزرة، وكانت لحوم الأطفال تمتزج مع الباطون، والطوب الحراري الذي لا يفهم لماذا يدمرونه، ويقلقون منامه، في تلك الليالي الملاح، حيث الليل أرخى سدوله، والقمر بدر، والجو بديع، وأصوات الجرافات تهدر، والناس يتراكضون متساقطين من طوابق عماراتهم، وهم يصرخون قائلين : (الله أكبر! الله أكبر!) والذي يعلق (متخوزقاً)بقضيب حديد، أو يقع تحت واجهة طابق منهار من الطوابق العليا، تروح عليه، وتشطبه شفرات جرافات الكاتربللر الديناصورية، التي تتلذذ بسفك دماء ناشطي السلام ،وساكني السلاملك والحرملك، وتضحك بملء شدقيها الواسعين، ويتحسن أداؤها، وتتحسن صحتها على رائحة الدماء.

أبو مسعف يتحرك الآن بين الطاولات، ويشاهد غريمه (أبو سامي)، في العرس الكبير، يجلس أمام أم سامي كالأرنب! كان يرى ثرثرة ومجاملة، ونفاقاً وتسلية، وأشواقاً ومحبة، وحقداً وكراهية. قال لنفسه :

" ماذا نفعل؟ نريد أن نعيش(إذا قلت للأعور، أعور بعينه، فإنه سوف يلعن أبوك، وأبو الذين خلفوك! لكن امش الحيط الحيط، وقل يا ربي الستيرة، والباب الذي يأتيك منه الريح، سده واستريح، وخليها في القلب تجرح، ولا بين الناس تفضح، وغلب وستيره ولا غلب وفضيحة، وقل : "سيط الغنى، ولا سيط الفقر، وحطّ رأسك بين الرؤوس وقل إقطع يا قطّاع الرؤوس!)

هذه العبارات مأخوذة من أقوال الزعيم المقاتل المناضل، المغوار، الصنديد، الشجاع، الهازم، المسيطر، الدكتاتور، الإشتراكي، الرأسمالي، الشعبي،الليبرالي، البرجماتي، التقدمي، حامل أسماء

الله الحسنى بالنيابة، والذي وضعوا لـه كرسـياً فوق الكرة الأرضية، فطالب بأن يمسك القمر، ثم مات!"

وكان العريس هاجم، والعروس ولاء، يتصدران القاعة، والزهور البيضاء والحمراء والصفراء والزرقاء، تحيط بهما من كل اتجاه.

ابتسمت العروس وقالت لحماتها:

"أنا آسفة، لأنني أخذت منك أعز ما تملكين، أخذت منك ابنك، فلذة كبدك!" فزعل أبو هاجم من عبارتها الوقحة، وقال للعروس ولاء:

" نحن نقدِر أن نُطلِّقك، الآن الآن وليس غداً! إذا كنت بهذه النفسية الاحتلالية الغربية، أقصد الغريبة عنا!"

فزعلت العروس على هذا التشبيه المرفوض! وبسرعة كشفت عن فخذيها الممتلئين بياضاً أشقر، وطبّلت على فخذها الأيمن - اللهم اجعلنا من أهل اليمين - وقالت أمام الحضور:

" لو طلّقتني، فلن تجد مثل هذه الأفخاذ الزهرية!" فانبهر العريس هاجم، وهو يشاهد فخذي العروس ولاء لأول مرة، فسال لعابه ثم قال لـها: "استحي يا ولاء! خلص خلص! لا داعي للمشاكل! كلها ساعة، ونذهب إلى شهر العسل، ونطلع من هذا العالم الخانق!"

كان الشباب والشابات يرقصون في الحفل الرائع، ويتحدثون بكلام غير مفهوم، وسط جو صاخب، وكان أبو العروس وأمها، يرقصان في الفرح، مبتهجين بالتخلُّص من حمولتهما الثقيلة، وكانت الضوضاء ترتفع، لدرجة أن لا أحد يسمع أحداً، والأغاني والموسيقى الصاخبة، وقرع الطبول، والروائح العطرية الممزوجة مع فساء البنات، ملونات الوجوه، بكل مساحيق وأصباغ (فاكس ماكتور)، المتلهفات لاصطياد عرسان لقطة، أو على الأقل صاحباً يستطيع أن يدفع بكل شيء، وكان دخان سجائر الحضور، يلوِّث الجو، ونرجيلة واحدة ضخمة مرتفعة، مثل برج الجزيرة، يضعونها في منطقة مركزية، لتشكل بنكاً مركزياً للنراجيل، تنطلق منه خراطيم كأذرع الأخطبوط، ولكنها خراطيم طويلة جداً جداً جداً، لا حصر لـها، توزع دخانها القاتل على الشاربين في كل مكان، يبقبق في قاعها هواء داخل الماء، فقال ذلك القوزاقي :

" سبحان الله! سبحان الله! سبحان الله! هذه بلاد مباركة! النار والجمر في النرجيلة فوق! والماء يغلي تحت! وعندنا في بلاد القوزاق، تكون النار من تحت، والماء يغلي فوق. صحيح إنها بلاد مباركة!"

وكان العرّاف العجوز الملتحي، الداهية أبو خنفر، بثوبه المزركش، متعدد الطبقات المتراكمة خلف مؤخرته، يتنقّل من طاولة إلى

أخرى، وبيده مسابح كثيرة، وبخور يكاد يعمي الأبصار، يفتح للنساء أشياء كثيرة ؛ مستقبلهن، وخيانات أزواجهن، وما إذا كان أحدهم سيتزوج (مثنى وثلاث ورباع)، ويبيعهن حجاباتاً ونذوراً مفعولها قوي، (ولا تخرّ الماء)، ويبلغ إحداهن عن دهاء حماتها !

بارك الناس للعروسين، ولكل آل الهوادري، وعادوا إلى بيوتهم سالمين .

وكانت بعض الخيول المتوحشة، قد تمردت ونجت من الفخاخ المنصوبة لها، وانطلقت مزهوة بحريتها، تطارد في الهواء الرحب، وأما باقي الخيول التي حشروها في واد سحيق، فلقد تحوّلت إلى أبقار لاحمة مدجنة، فوضعها أصحاب الرقاب الحمراء، في أقفاص كالنعاج الصغيرة، فصارت دجاجاً أبيض، يأكل داخل أقفاصه من المعالف الأمامية، ومن الخلف يتبرز زرق الطيور.

وفي نهاية كل شهر، يفرجون عن تلك الدواجن اللاحمة المسجونة، فتنطلق كلها ترفرف، غير قادرة على الطيران، متحركة إلى الأمام، كالسيارات التي تزحم قاع المدينة، تتجه بقوة وجرأة ووحشية وتزاحم نحو المسلخ، لتحل محلها فراخ صغيرة، يتم تسمينها شهراً آخر، ثم يسحبون عظامها، لتصير على طريقة الدجاج المسحب! ثم يفرجون عنها كسابقاتها، فلا تعود تقوى على الحركة!

خرّافية الغول!

كانت جدتي سعدة تجمعنا تحت لحاف ثقيلٍ مصنوع من ألياف الشرائط المطحونة، وتبدأ خرّافياتها التي كانت تمتعنا وتشدنا :

" الليلة يا اولاد يا شاطرين، بدي أخرِّفكم خرّافية (الغول.)"

فتقول لـها أختي فضيلة :

" آه والله يا ستي! خرّفينا خرّفينا!" وننصت أنا وأخي عنان، مشنِّفين آذاننا لسماع الخرّافية، ونحن متدثرون باللحاف الخميل، فتبدأ العجوز حكايتها :

"كان يا ما كان، في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان،
مختار قرية فلسطينية، قاعدة على شط (الميّة*)،
المختار غني كثير مما ألله وهب، وعنده بيار مليانة ذهب،
وما عنده أولاد صبيان، غير بنت واحدة، اسمها قمر الزمان"

فقال عنان:" يا ريت لو إن هذا المختار أبوي!" فقالت لـه فضيلة :

" أسكت خلينا نسمع الخرّافية!" فسكت، وواصلت جدتي خرّافيتها:

"ومن كثر جمال قمر الزمان، طلبها كل الشبان.
وكل واحد منهم، لهالبنت الحلوة عشقان !
لأنه مغرم بجمالها، ونفسه في ذهب أبوها ومالها،
وكان على الشط مغارة فيها غول اسود، أرعب الناس وخرّب البلد،
والناس خايفة ومرعوبة منه، فقام المختار قال لخُطّاب بنته:
هذا الغول اللي طلع النا من الغرب، حاولنا نكرمه بالأكل والشرب،
وعملنا لـه كل الأكلات المعروفة، لكنه ما كان يشبع ولا نتّوفة،

---

* معظم كلمات الخرّافية مكتوبة باللهجة الفلسطينية، بهدف توصيل جو الحكاية.

إلا إذا أكل لـه كل يوم، واحد اثنين وكوّم عظامهم كوم!
وأنا بعطي بنتي للي بيقتل هالغول، وبيخلّصنا من شرّه المهول،
وانتِبهوا إنه الغول إله عينين بيطلع منهن لـهب،
تحرق كل الأشجار والحطب،
وبتعمي أيّ واحد بيلاقيه، وبيهجم وهو غظبان عليه،
وإله اسنان طوال بيشُرّ منهن دم، طالعات لبرّه من ثمه يَم!
وبيوكل بيهن اللي بيعميه، وبيهد داره بإيديه،
وقتل الغول في مكانه، بيكون سهل إذا شلح اسنانه،
بيصير دايخ وينعمي بصره، ومش عارف وين الله حَشَرُه!"
فخافت فضيلة، والتصقت بجدتي سعدة، وسحبت اللحاف فوق رأسها، ولكنها أبقت أذنها مكشوفة، لتسمع قصة الجدّة، التي تابعت خرافيتها :
قام واحد شاب فقير الحال، راكب هالتيس وعامل عليه خيّال،
تقدّم لأبوها وقال :
"أنا بدبر الموظوع بأمان، وهديتي عندك تعطيني قمر الزمان."
فقال لـه المختار :
" معقول تقتل الغول، وانت راكب تيس مسطول؟"
لكن الولد هجم هو والتيس بجسارة، وراح مسرع عالمغارة،
والتيس يمعّي تحته، قام الغول سمع معمعته،
فهجم عليهم وأكلهم صرر صرر! وعرفوا الناس وانجنوا بالخبر،
إجا بعده شاب وقال للمختار بصوت دفش :أنا خيال الجحش،
بدي أخفش لك هالغول خَفِش، وأخليه يحسب إنه ربه مخلقهش!
صار الولد يهدِّد ويزعِّق زعيق، لحين ما وصل نص الطريق،
وصار الجحش ينهِق نهيق !
قام الغول هجم عليه، وحرقه بنار عينيه، هو وجحشه اللي عليه،
وشواهم لحين ما استوت لحماتهم، فأكلهم وقرقط عظماتهم.
سمعوا الناس بخبر الولد البهلول، فخافوا أكثر من هالغول،
اللي كل يوم بيوكل لـه واحد اثنين من أهل البلد،
وغنمهم وحميرهم، وولد الولد!
إجا شاب وقال للمختار :

أنا خيال الحصان، راح أفرجي الغول، الموت ألوان .
قام استل سيفه، وركب حصانه بكيفه،
الغول سمع الحصان وصوت صهيله. ففكر بطريقة يهد فيها حيله!
قام هجم عليهم، وأكلهم وقطع تاليهم!
الناس ماتت من الخوف لإنه مفيش إلهم قايد،
فإجا للمختار واحد إسمه عايد،
وقال لـه: يا مختار الزمان،
هذا الغول ما بدّه راكب حصان، ولا فلان، ولا علاّن،
أنا الوحيد اللي بفهم كيف أتحايل عليه، وكيف أخلّص لك عليه،
بدون ما أركب حصان، ولا مساعدة شجاع، ولا جبان!
شاف المختار إنه هذا عايد مش قليل،
فقال لـه : انت ذكي وما بدك دليل!
تعجّب الناس من شجاعة الشب، فراح ماشي بدون صوت، للغرب،
وصل مغارة الوحوش، وتلبّد من هون لـهون!
وكان الغول برّة يدوِّر لـه على إنس، مِثل المجنون!
صار عايد يدوِّر جوّات المغارة، فلقي مَرَة صبية حلوة زي البنورة،
قالّلها : إنت مين عندك، وشو إسمك ؟
قالت لـه : أنا مرت الغول، واسمي ست الحسن، بس أوعى تقول !
خطفني الغول من أهلي وقال لي: يا بتجوزك يا بوكلك على مهلي!
قمت من حلاوة الروح، قبلت أتجوّزه وأظل معاه وين ما يروح.
قال لـها عايد : طيب وين غول الجنيِّة؟ قالت لـه:
داير في البرِّية، بيشوف لـه صيدة طريِّة . قال لـها :
إنت بتحبيه؟ ولاّ بدك تتخلصي من تاليه ؟ قالت لـه:
أنا بخاف يقتلنا أنا وياك، خاصة إذا شافني معاك!
هذا بيشم ريحة البني آدم من بعيد.. وبيفتفته لو كان حديد !
قاللها: متخافيش أنا بخلّصك منه.. وإذا بدك ترتاحي، لا تهملي همّه.
قامت فرحت على طول،وحكت لـه كيف يتخبى لما ييجي الغول،
وقعدت معاه تحكي لـه عن مرار عيشتها، وعن حبها لإبن عمتها،

اللي كان بده يتجوزها، وكيف خطفها الغول ليلة عرسها،
وأخذها لهذه المغار، وهيك صارت عيشتها مرار في مرار!
وبعده إبن عمتها بيدوِّر عليها، والناس قالوا لـه الغول أكل تاليها!
قام قاللهم : بدي أظل أدوِّر عليها، حتى إني ألاقيها.
وقعد عايد مع ست الحسان، يحكيلها عن حبه لقمر الزمان،
وصار يوصف بأوصافها، ويتأوه لعشقه إلها ولحلاوة شبابها،
وضحكت على حكاياته،وكيف بده يتخلص من الغول ومن جنوناته،
ويرجعها سالمة لأهاليها، فدلّته على الطريقة اللي بدّه يتخبى فيها، وكيف بده يهجم على الغول، بس تأشر لـه بإيديها !
وبعد نص الليل إجا الغول يتهدرس، شبعان، ومش قادر يتنفس!
وكرشه حامله بإيديه، والنار طالعة من عينيه،
وأسنانه بيشرِّن دم احمر، خافت ست الحسن وصار وجهها اصفر!
شمشم الغول، وصاح فيها: ريحة إنس!
قالت لـه هذه ريحة البني آدم اللي أكلته بس!
ومن كثرة ما هو معبِّي بطنه لحم وعظم،
نام وصار يشخِّر، ويحلم في سابع حلم.
قامت سحبت لـه طقم اسنانه من فمّه بشويش،
فقال لها : سحبتي اسناني ليش؟
قالت لـه : لأنك شبعان، وما بدّك توكل كمان،
بدِّي اياك ترتاح في نومتك يا فهمان!
صدّقها الغول ونام وغفي ملتاع،
وقامت ست الحسن أشّرت لعايد الشجاع،
قام أجاها بجسارة، وجرّد سيفه بمهارة، وانقض عليه في المغارة،
فظرب الغول على هامُه، فألقى راسة قدّامه،
وصار الدم يشغر من الغول شغِر، ومن هالظربة مات وراح للقبر!
وقامت ست الحسن هيِّ وعايد مسرعين،وطلعوا من المغارة سالمين،
وراحت معه بفرحتها، ووصّلها عند ابن عمّتها،
واستقبله المختار هو وبنته قمر الزمان ، وعملوا الفرح فرحين،
واحد لعايد وقمر الزمان،والثاني لست الحسن وابن عمتها نعمان،
وسادت القرية الأفراح، والليالي الملاح،

وتخلّص المختار من الغول، وصار الناس يحبوه على طول."
كنت أنا آخر واحد يتابع خرّافية جدتي سعده، وأما أختي فضيلة فكانت في سابع حلم، وكان أخي عنان يشخّر.
غطّتنا جدتي، وقامت دون أن تزعج نومنا .

بطاقة دعوة !

ما أن تقعد فتاتانِ، أو تمشيانِ معاً، إلا ويكونُ حديثُ الحبِّ والغرامِ والزواج على الصفحةِ الأولى من أحاديثهما. وفور دخولِ المهندسة سحر- بابتسامتها الرقيقة، وحركاتها الرياضية المرحة، وتفاحتين ناضجتين تتقلقلان على صدرها- إلى صيدلية الصيدلانية جيهان، والسلامِ عليها بالقبلات، لاحظت أن جيهان مرتبكة، وقد تعودت أن تراها باسمة، وكأنها تخفي خلفها سراً! وقبل أن تطلب منها سحر قطرة حساسية الربيع، الذي يصيبها سنوياً في مثل هذا الجو الربيعي، سألتها عن أحوالها:"ها كيف حالك؟صحتك؟ أخبارك؟ شايفتك مش على بعضك! في شيء جديد؟" فابتسمت الصيدلانية جيهان قائلة:" حالي وصحتي وأخباري ممتازة، والجديد في الموضوع ؛ وباختصار، ودون مقدمات، فأنت مدعوةٌ لحضور حفل زفافي على عريسي سائد التهامي."

فوجئت المهندسة سحر بالخبر السعيد، ولم تنتظر لمعرفة تفاصيل القصة:" بالله! متى خطبك؟ ألف مبروك!" فردّت عليها جيهان، وعيناها في الأرض محرجة :" لم يخطبني هو، أنا التي خطبته، أنا التي قمت بالمهمة." وفوراً ودون دعوة، قعدت سحر على المقعد المجاور لجيهان، الجالسة مقابل صندوق النقد، كمن أسقط من يدها، واستغربت الخبر قائلة:" أنت التي خطبته؟ هل تمزحين معي يا جيهان؟" فقالت جيهان وهي تغلق صندوق النقد، وتضع راحتها اليسرى تحت ذقنها:

" هل تفكرين أنني أمزحُ مَعَكِ؟ لا والله! إنني جادّة! قولي إن الفكرة لم تعجبك من أساسها! أنت حرّة، المهم أنا فعلتُها وانتهيت." كانت جيهان تؤشر بيدها اليمنى وتنفعل، مرّة بقوة الحاصلة على كنوز الدنيا، ومرة بضعف الخائفة من ذل الفضيحة، أمام صديقاتها ومعارفها وأقاربها، الذين قد لا تروق لـهم الفكرة، لأنها ليست من عاداتهم وتقاليدهم، فيرفضونها. وتابعت قولها :" خطبت سائد، واتفقنا على الشبكة، واستئجار الشقة وفرشها، يا إلهي كم تعبنا ونحن نبحث عن بيت مناسب، لكن طلع حظنا رائع، واستأجرنا من واحد مغترب ومحتاج لإشغال شقته بأي ثمن، على الشارع الرئيس، مع تدفئة وخدمات منفصلة، وطوال النهار، ونحن نختار خاتم الزواج، وشبكة العرس، ومشتريات لا أول لـها ولا آخر، والأسعار صارت نار! وأنت تعرفين، الاقتصاد واجب، خاصة أنني أنا المعنية بالنفقات! والعرس سيكون يوم الخميس القادم، صرت أغني مع شادية : (تعرف إني كل خميس بحلم بيك يا حبيبي عريس !) والآن تحول الحلم إلى عِلم، وأعددنا بطاقات الدّعوات لجميع

المعارفِ والأصدقاء، وسنقيم حفلةً بسيطة، فأنا وسائد لا نؤمن بحفلات الزواج الباهظة التكاليف."

كتمت سحر ضحكتها، وهي تسأل:"أستغرب ما حصل! وهل أنت فعلاً التي بادرت بالخطوبة؟" كانت المهندسة سحر تعيد إلى ذهنها قصص علاقاتها بالشباب ؛ المهندس رفعت، والنجار طلال، والطبيب سلامة، والمقاول برهان، والمحامي نزار و.. الذين التقت بهم على هامش العمل، فهذا يناقشها في الشغل، وذاك يغازلها، وذاك يعبر لـها عن اعجابه بها، أو رغبته في الجلوس معها، أو دعوتها إلى الغداء، أو العشاء، ولكنها كانت تصر على الرفض، وأن علاقاتها معهم لم تكن تتعدّى مكان العمل، فهي مهنية بطبعها، إعتادت على الحوار مع الرجال، والتحدث معهم ومناقشتهم، وقبول أفكار بعضهم، أو رفضها، ولم ترفض مناقشة من يعرض عليها الزواج، فإذا أعجبتها شخصيته وحواره، ومستواه الثقافي والاجتماعي، ومركزه المالي، تعرض عليه أن تقوم أمه بالاتصال مع أمها، وعلى الأقل، تطلب منه زيارة والدها، فإذ تم اتفاق، فقد تتطور العلاقة، إلى الجاهة الكريمة، والعشائر والعباءات، والمهر المقدم والمؤخر، وحفلة الشبكة والذهب، وباقي الترتيبات الأخرى! يجب أن يدوخ العريس، ليحصل على عروسه، كي يعرف قيمتها بعد الزواج، وأنه لم يحصل عليها بالهين، فيهملها، لأن الذي يأتي بسهولة، يذهب بسهولة! هكذا كانت المهندسة سحر تفهم الخطوبة، وهي أصلاً لا تقبل بغير العادات والتقاليد، التي تخلق للعروسين هيبة ومتعة وفخاراً، واشهاراً للأسرة الجديدة! تلك هي سنة الحياة! أليس كذلك؟ سألت سحر نفسها، بصوت لا يسمعه سوى قلبها .

وأجابت جيهان التي شاهدت سحر شاردة الذهن : "ولماذا تستغربين خطوبتي؟ وهل الخطوبةُ مقصورةٌ على الرجالِ فقط؟ كان الرجالُ يحتكرون الفنون والعلوم والمهن. وكان الفنانُ السوريُ أنور البابا، يقومُ بتمثيل دور (أم كامل) في الإذاعةِ والتلفزيون. والآنَ ألف امرأةٍ تقومُ بدور أم كامل، وصارت الممثلات حول المغني أو الممثل، مثل (الهم على القلب) أقصدِ مثل الزهور في الحديقة، وصارت المرأةُ محاميةً وقاضيةً، ورئيسةَ جمهورية، وسائقةً ونائبةً وعضوةَ مجلسٍ بلدي، وتاجرةً وصيدلانيةً مثلي. وكان الرجل يستبيح لنفسهِ فقط لبس البنطلون، ويقرر للمرأة ثوباً، والآن دخلت المرأة على الخط، فلبست البنطلون، وأبرزت صرتها، وصارت تشرب النرجيلة مع الشبابِ على أرصفةِ المقاهي، صحيح إنني أنا وأنتِ لسنا من هذا المستوى، ولكن الزواج حق، فلماذا تستكثرين عليّ أن أقوم بخطبةِ الشابِ الرائعِ سائد؟ فأنا صيدلانيةٌ، أدير صيدليةً محترمة، وعندي إيرادٌ مالي شهري منتظمٌ ومتزايد، ولا أريد أن

أقول إنني جميلة، ولكنني مقبولة، ومتوسطة الطول، ومتناسقة القد، ولا تنقصني يد، ولا رجل، ولا عين، وسمعتي جيدة، وصار عمري سبعاً وعشرين سنة، ولم يبق أمامي سوى الزواج. هل تريدينني أن أبقى قاعدة على الرصيف، وكفي تسند ذقني(هكذا)! بانتظار(جودو) الذي يأتي ولا يأتي، على رأي (بيكيت)، عليه السلام؟"

دخل الصيدلية رجل عجوز، ملفع بملابس ثقيلة، يطلب دواء بوصفة طبية كانت بيده، مما أربك جيهان، وجعلها ترحب بالرجل، ثم تبحث له عن الأدوية المطلوبة، وتضعها مسرعة في كيس ورقي، ثم أخذت منه الثمن وخرج الرجل، فتفرغت لحكايتها مع المهندسة سحر:" قلت لنفسي : لا يا بنت، قومي واسعي في مناكبها. ثم إن كثيراً من الشباب يتهيبون الدخول في معترك الزواج، ومسؤولية الأسرة، ومتاعب الزوجة والأولاد، وهؤلاء بحاجة إلى نبش أفكار، ليدخلوا عالم الزواج، وأنت تعرفين أن البنت تنضج مبكراً، قبل الولد، ولذا فعليها التفكير قبل الشاب بأمور الزواج، وبذلك تساهم المرأة بدور فاعل في تسويق فكرة الزواج، والترويج لها، وكل مادة أو فكرة أو قضية أو هدف، هذه الأيام بحاجة إلى ترويج وتسويق، وإلا بقينا قاعدات على الرصيف، وبقي مجتمع الأزواج والأمومة والطفولة ضعيفاً، وليس عليه طلب ! علينا نحن معشر النساء، أن (نقلِّب عيشنا) يا سعاد! وأن لا نبقى سلبيات، قاعدات (برسم البيع)! أنا أؤمن أن المرأة نصف المجتمع، فلماذا تبقى هكذا قاعدة بالانتظار؟ أقنعت أمي وأبي بالفكرة، وقمت بالمبادرة. زارني ابن جيراننا، محمود البواكيري، الذي يعمل رئيس قسم انتاج في مصفاة البترول، وبعد حديث مطوّل في الصيدلية، شعرت أنه يحترمني، ويستلطفني، وأنا بصراحة، كنت أرى فيه رجل أحلامي، أو شيئاً من هذا القبيل، وبعد اللقاء، بادرته بالقضية، قلتُ له: إنني بصراحة معجبة بك، وأريد الزواج منك. فقال لي: لقد فاجأتني يا جيهان. فانا خطبتُ ابنة خالي قمر، ولولا ذلك، لما تكبّرت عليكِ. أنت يا جيهان جميلةٌ ورائعة، وكل الشباب يتمنونكِ. ولكنِ الزواج قسمةٌ ونصيب! مطَّطتُ شفتي، وقلت له: لا أبداً! لا شيء يُهم، اِعتبر الموضوع منتهياً. أتمنى لك التوفيق مع ابنة خالك، مع أن زواج الأقاربِ، غير مرغوبٍ وراثياً! فقال: "هذا ماحصل. ألم أقل لكِ ؛ قسمةٌ ونصيب !"

وفي يوم آخر، التقيت المهندس اسماعيل أبو داوود، وكان قد تخرج من كليةِ الهندسةِ التطبيقية، كان زميلي بالدراسة في نفس الجامعة، ثم اشتغل مع شركةِ إنشاءات، وكان ذا سمعة مهنية وأخلاقية عالية. قلتٍ لنفسي: يا بنت، بصفته تخصص هندسة تطبيقيّة، لماذا لا تطبِّقيهِ للزواج؟"

كانت سحر تستمع إلى جيهان وهي تضحك، وتحدِّث نفسها قائلة :

" أكيد أن البنت قد جنت بعد السابعة والعشرين من عمرها، فلو قلنا إنها قد وصلت إلى سن اليأس، لادّعينا أنها ليست بكامل قواها العقلية، وتوازنها النفسي، ولكن البنت." ثم قالت لها مستغربة:" كل هذا، من تحت لتحت، ولم تخبريني به أولاً بأول ؟" فحكّت جيهان أنفها وأجابت قائلة:" كانت أحداثاً متسارعة يا سحر، وأنا أيضاً لم أشاهدك منذ مدة! وأحببت أن تكون تجربتي مفاجأة، لحين نجاحها، وها نحن..!"

وكأنها تستنطقها قالت:" طيب! وبعد ذلك ؟ أكملي."

" وبعد حوار طويل معه، في الصيدلة والعمارة والسياسة، والقيل والقال، وأخبار الأهل، ودرجات الحرارة، قلت لـه : يا مهندس إسماعيل، نحن تخرجنا، وها نحن نعملُ فِي بدايةِ حياتِنا، ولم يبق أمامنا سوى الزواج، فما رأيك أن أخطِبَكَ للزواج منك؟ بصراحة أنا معجبةٌ بك وبأخلاقِكَ العالية، ونحن بحاجةٍ للاستقرار، كي نستطيع أن نبني حياتنا بهدوء." فقال بهدوء وأدب، وكأنه يشعر بالذنب لمخالفته طلبي:

" واللهِ يا دكتورة جيهان، أنا أتمنى ذلك، ولكن والدي أنفقَ على دراستي دمَ قلبهِ، والآن أنا أدرِّسُ إخواني الثلاثة، إثنانِ منهم في المدرسةِ، والثالث في سِنة أولى جامعة، وأحتاجُ خمسِ سنواتٍ لخدمتهم، حتى أستطيعُ أن أتفرغ لخدمةِ نفسي. هكذا اتفقتُ مع والدي. ولهذا لن أستطعُ الارتباط بكِ خمس سنوات دون زواج، ويا عليم، ماذا سيحصلُ بعدها! ولهذا أرجوكِ أن تعذريني، فعذرتُهُ ومضيت. ولكنني لم أستسلم."

تستمع سحر إلى حديثِ جيهان وهي فاغرةٌ فاها، ومندهشةٌ من هذه الجرأةِ الزائدة! أكيد أن الدنيا قد تغيرت، وأن العادات والتقاليد تتغير أيضاً، والمرأة التي كانت تلبس الثوب بالأمس، صارت اليوم تلبس الـ.. ولكن ليس إلى هذا الحد! فأنا والله لن أخطب بهذه الطريقة، حتى لو كان الشاب يروق لى،ونفسي فيه! أين الكرامة، وأين الأنوثة، فالفتاة يجب أن تكون متمنعة وهي راغبة. ولو نظرنا إلى حركة الطبيعة، نجد الذكر دائماً هو الذي يبادر، ويغازل الأنثى، أنظري إلى ديك الحبش الرومي، كيف يسير متبجحاً مغروراً حول الأنثى، والعصفور يستعرض نفسه أمام أنثاه، وحتى حبوب اللقاح تطير مسافات في الهواء، باحثة عن مياسم الأنوثة لتلقحها! تلك هي حركة الطبيعة، فكيف نعاكسها؟

لم تكن جيهان تسمع ما يدور بخلد صديقتها سحر، فأكملت حديثها قائلةً :" لاحظي يا سحر أن المرأة هي التي تجمل نفسها لتجذب الذكر، وهي التي تدهن وجهها بالأصباغ، وترش ملابسها وجسدها بالعطور، وتعمل المستحيل لتمشط شعرها في صالونات الحلاقة النسائية، كي تبدو بأجمل مظهر، وتلبس الملابس المثيرة للرجل، بهدف اصطياده، وإيقاعه في فخ الزوجية، فلماذا لا نخطو الخطوة اللاحقة، ونقطف الثمرة؟ الحديث يا سحر في هذا الموضوع يطول. فبالتفاهم بيني وبين أمي، ذهب والدي، وطلب لي يد صفوان ابن صديقه أبوسنانة، فقال أبو صفوان: إن صفوان أصغر من جيهان، ولا يجوز أن يكون الزوج أصغر من الزوجة، لأنه عندما يكبر، فالمرأة تهرم أولاً. قلت في نفسي:

- هذا غير صحيح! لأن معظم نساء العالم يعشن بعد وفاة أزواجهن أكثر من عشر سنين. معنى ذلك إنه لا يهمّ لو كانت الزوجة أكبر من الزوج. فلماذا يبقى الزوج أنانياً ويتزوج الصغيرات؟"

فكرت المهندسة سحر بسن خطيبها المتوقّع ؛ الطبيب رائد، وإنه يكبرها بتسع سنوات، فقالت لنفسها: "هذا أحسن، كي لا تبقى عينه زائغة على غيري من الصبايا الصغيرات!" وأكملت جيهان قائلة : "وكثيراً ما يزورني الصيدلاني جميل السعافي، ولو أنه قصير ومربوع وأسمر، وشكله دفش! ولكنه متحرك، ونشيط في التجارة، ويعمل مسوقاً للأدوية والمواد الصيدلانية، ويعرض علي مواد مستودعهم، وأشتري منه أنواعاً كثيرة، وأتحدث معه بزمالة، وصراحة، وأحياناً نمزح في حدود الأدب، ويشتمني، ويقول لي : أنت هبلاء! فأقول له : احترم نفسك! ولكن الشاب محترم، ويتوقف عند حدوده، ومرات يأتيني، ومعه شطائر جبنة ولحمة ومعجنات، ويقول لي : أكيد أنك لم تأكلي، منذ فطمتك أمك، والجوع يهاجمك بشراسة! يشعرني الملعون بالجوع، فأضطر لمهاجمة شطائره، نأكلها سوياً، ونتحدث في أمور الدنيا .. ومن حديث إلى حديث، عرضت عليه الزواج مني، فقال إنه مهاجرٌ الى أمريكا، وسوف يتزوج من ابنةِ جيرانِ خالتِهِ هناك.. قلت له: مبروك. وفي النهاية قلت لأبي :

- ما رأيُك بالشاب سائد؟ تاجرُ سياراتٍ ألمانيةٍ محترم... صحيح إنه ساقط في التوجيهية، لكنه نمرٌ في تجارةِ السياراتِ الألمانيةِ المستعملة، ولديهِ معرضُ سياراتٍ معتبر!

كان أبي يؤمن أن تزويج البنات، أهم وأولى من تزويج الأبناء، ولهذا كان يضحك عليّ حينما أعرض عليه الفكرة، ولكنه عندما تقع الفأس في الرأس، يقوم ويبادر بتنفيذ طلباتي، ويعملها.

ذهبتُ إلى سائد بحُجّةِ شراءِ سيارة، وبعدَ عِدّةِ زياراتٍ لبحثِ أمورِ السيارة، وافق على أن أخطِبَهُ، وتحدّثَ معهُ أبي، ثم انتشر الخبرُ بين أهلِهِ وأهلي، وجلسنا عدةَ جلساتٍ، لتحديد ما لنا، وما علينا، وتم الاتفاقُ على أن أدفعَ أنا نصفَ المهر وتكاليف الزواج، ويدفعُ هو النصفَ الآخر، واتفقنا أن تكون عصمةُ الطلاق لا سمح الله، من حق أيٍ من الزوجين، ولِمَ لا! ما دُمتُ أنا المبادِرَة ! الرجالُ المرموقونَ صاروا ندرةً هذهِ الأيام يا سحر! والعظماءُ استشهدوا دفاعاً عن الوطن!

فقالت سحر ساخرة : تقصدين المثل الذي يقول (إللّي استحوا ماتوا)! فقالت جيهان :" اِحسبيها كما تريدين، ولكنكِ لا تستطيعين أن تُنكري أن المتوفرين منهم ؛ ظروفهم المالية صعبة، وبحاجةٍ للتعاونِ معنا نحنُ معشر النساء، والمرأة مطلوب منها أن تشارك !"

فقالت سحر :" المهم ماذا أخيراً؟ أعطيني من الآخر!"

" وأخيراً ها نحن سنطبعُ بطاقاتِ الدعوةِ، وفيها كل التفاصيل. أليست تجربةً جريئةً ورائدةً يا سحر؟ لم تجبها سحر بغير جملة واحدة :

" ألف مبروك يا حبيبتي، وسأكون أول الحاضرين، ومعي أكبر سلة زهور !"

استأذنت سحر وخرجت من الصيدلية، وهي لا تزالُ فاغرةً فاها! كانت الفكرةُ جديدة عليها، وعلى الّذين خلّفوها !

(المجلة الثقافية – الجامعة الأردنية - 10- 2004)

حمودة يلعب !

داهم ثلة من المجندين المدججين بأسلحة رشاشة، الطفل الفلسطيني حمودة، فألقوا القبض عليه، متلبساً بجريمة قذف الحجارة في اتجاهات مختلفة .

كان الطفل حمودة في تلك الأمسية يلعب بالحجارة، محتفلاً بعيد ميلاده الثاني، حيث لم يكن مع أهله المحاصرين منذ ثلاثين عاماً أية نقود لشراء لعبة لـه في تلك المناسبة، فاضطر الطفل للاحتفال بقذف الحجارة في الساحة العامة. وعندما تحلق المجندون حوله، تدلت فوهات و(سونكيات) بنادقهم إلى الأسفل، محيطة به، ففرح حمودة، وتفتحت ابتسامة على وجهه، مثل تفتح وردة جورية، ومد يديه الصغيرتين إلى أعلى، فأمسك بهما فوهة بندقية، وراح يلعب بـ(السونكي)!

دائرة الموت!

يا أخي، هذا العبد الودود محدِّث لبق ومدهش ! يفكر بأشياء لا تخطر على بال أحد! حدثني ذات مرة أحاديث مرعبة! قال: "في كل مرة أموت فيها، أحرص على الاستفادة من التجربة، كي لا أقع مرة أخرى في مطب الموت!" وتابع عبد الودود قوله:" الموت مطبٌ سخيف ومرعب، ينقلك من الحياة الدنيا الى الآخرة، هكذا، برمشة عين! وأول مرة متُّ فيها، شعرت كيف تنتهي الحياة، كضوء يتلاشى، وراقبت اللّحظات الأخيرة الفاصلة بين الحياة والموت. كنت صغيراً في الثالثة عشر من عمري، عندما أحسست أنني أغرق أغرق، في حوض ماء، يشبه حفرة القبر، وأنا أتمدد تحت الماء، وفقاعات الهواء تخرج من فمي، وأنا أحاول الارتفاع من تحت الماء، كي أصل إلى السطح، فأتنفس! ولكن شيئاً ما كان يثبتني في القاع! والهواء يتناقص تدريجياً من رئتي، وأنا ما زلت أسيطر على نفسي، فأمنع الماء من الدخول إلى فمي ورئتي، حيث الطبيعة تكره الفراغ. وانتهى الحدث المرعب بموتي! مت والله يا أخي، وشبعت موتاً ! استغربت تلك النهاية الفاجعة لحياتي، فأنا لم أبدأ بعد! ولكنني دهشت عندما أفقت من النوم، وأنا أشاهد نفسي ما أزال حياً، وأن حلماً مرعباً..! الحمد لله أنني ما أزال عائشاً! واتعظت للمرة القادمة، وقررت أن لا أسبح في الماء بعد تلك الصدمة المروِّعة! لا في ماء البحر، ولا ماء النهر، ولا حتى في جرن ماء الحمام. صارت بيني وبين المياه العائمة عداوة! "

قلت له: "تعبت رجلاي من قصصك المخيفة هذه، تعال نجلس." فجلسنا، وتابع الودود قائلاً :

في المرة الثانية، هاجمني الموت داخل سيارة الأجرة العمومية التي كنت أقودها بنفسي، كنت قد وضعت رأسي بين الرؤوس، وقلت: (اقطع يا قطّاع الرؤوس) وعند منعطف حاد، فاجأتني سيارة أخرى مجنونة، خارجة من عقالها، تنطلق متقابلة مع سيارتي، وكانت السيارتان مسرعتان، تتقدم إحداهما باتجاه الأخرى، لم أستطع التحكم بالمكابح، ولا بعقلي الذي انقلب فجأة ! كنت أضغط على المكابح، كمن وضع كلتا رجليه في الحائط، ولكن بلا تجاوب، والشارع يضيق يضيق، حتى صار مثل خرم الإبرة! وأنا أراقب الحدث، كمن يلعبون اليوم بسباقات الكمبيوتر، لم يكن يومها شيء اسمه أحزمة أمان، ولم يكن هناك وقت للتفكير في الطلب الأخير قبل الموت، مثلما يسألون المحكوم عليه بالإعدام عن آخر طلب له

في الحياة، فيقول مثلاً : "أريد أن أودِّع أولادي، أو أريد أن آكل ملوخية، أو أريد أن أقبِّل حبيبتي!" لم يكن لي امرأة ولا أولاد، ولا من يطبخ لي ملوخية ! ولم يكن هناك وقت للطلب الأخير. والأنفاس تتوقف، والأفواه والأنوف، يزداد انفتاحها، بلا شهيق ولا زفير، كالسمك المصطاد من البحر، فاغراً فاه، ولكن ما من ..! واقتربت السيارتان من بعضهما، ثم اصطدمت المقدمتان، فتحطم صفيحهما، وكأنهما ينصهران في بركان ناري دافق! دخلنا في بعضنا يا محترم بالأحضان! وكان صفيح السيارتين يشق الأجساد من الوريد إلى الوريد! ويحتلها ويسكن فيها. تقطعتِ الأوصال، وعلا صراخ جماعي، خارج من أتون النيران، سريعاً ما خفتَ وبرد، ثم انقطع، ثم زاغت الأبصار! ومتُّ مع الميتين. آه والله مت، وشبعت موتاً! وانطفأت مع الحديد الذي انطفا! وبعد خمسة عشر يوماً من الغيبوبة يا حبيبي، عدت إلى الحياة من جديد ! قالوا لي : لا تخف، إنك في المستشفى، وقد نجوت بأعجوبة، بعد أن طرّزنا جسدك بخيطان العمليات الجراحية، فأعدناك بعون الله إلى الحياة مرة أخرى . تعلّمت من ذلك الحادث درساً لن أنساه طيلة حياتي! قلت لنفسي: "لن أركب بعد اليوم سيارة أو طائرة، أو حتى دراجة هوائية، فأنا لا أريد أن أتعرض للموت مرةً أخرى، فتكون هي الطامّة الكبرى!"

غيّرت مهنتي، فعملت بائعاً متجولاً بأكياس بلاستيكية ؛ بقجة من البلاستيك، أحملها على ظهري، وأدور بها على المحلات التجارية، ماشياً على قدمي، أبيع لهذا الدكان ربطة أكياس، بينما يصرفني أصحاب باقي المحلات، رافضين الشراء، وبعضهم يشتمني لإزعاجهم بالدخول الى محلاتهم، وعرض بضاعتي، مشيرين إلى لافتات تقول :

- (ممنوع دخول الباعة المتجولين) وبينما أنا أسير وأسير، غير آبهٍ بالمناكفات ومتاعب السير، ومواجهة الداني والقاصي، لحقت بي سيارة منحرفة، يبدو أنها تتعاطى المخدرات بدل البنزين، وصعدت إلى الرصيف والتهمتني، ثم دخلت في المحل التجاري فوقع جدار، وانهار الزجاج الأمامي للمحل، ولم أشعر يومها إلا وأصوات أشياء تتداعى وتتحطم، وتنهار فوق بعضها، وأنا في وسط أتون المعركة! في تلك اللحظات، شعرت أنني لا أستطيع أن أفكر، أو أن أخاف الموت، أو أن أشعر بالرعب منه ! أنني أفاجأ بالحدث، ولذلك فالموت في مثل تلك اللحظات، ليس مخيفاً، والنهاية ليست موجعة، إنها ضياع بين أشياء كثيرة متصادمة. الروح تتهشم، وتنكمش تحت الركام، وتذوي! الشيء الوحيد الذي يختفي هو

الروح. تختفي ببساطة مثل لمح البصر، وتنتهي الحياة. وكثيراً ما أسأل نفسي:

"هل الحياة سخيفة إلى هذه الدرجة؟ هشّة، وسريعة الانهيار؟"

" وهل الموت غير مؤلم كما أحس ؟ إذن لماذا يخافون الموت ؟"

"هل يخافون أن تنتهي حياة العذاب! عذاب البائع المتجول! الباحث عن القرش، لتسديد مصاريف الزوجة والأولاد!"

" وهل الموت أسهل وأسرع من عذاب استجداء البيع، والتزلف لقبض الثمن؟"

ذلك ما شعرت به وأنا أموت، أمام تلك السيارة الحولاء، التي دخلت بعرض المحلات التجارية!

وبعد شهر من الغيبوبة، فتحت عينيّ، فقالوا لي :

" لا تخف، أنت في المستشفى!" لم أكن أنا الذي أخاف، بل كانت زوجتي وأولادي هم الخائفون عليّ أن أموت، فلا يجدون من يسدد مصاريف حياتهم، ولهذا كانوا خائفين، مرعوبين من الموت! وأما أنا! على حذائي...! فلقد كنت مرتاحاً وأنا أحلم أنني أتمدد وسط أرض ؛ عشبها أخضر، وأزهارها خضراء، وأشجارها خضراء، وحرارتها خضراء، وكأنني في الجنة الخضراء. كنت مثل(ثور الله في برسيمه!)، ولكنهم أزعجوني، عندما عملوا على إيقاظي من الغيبوبة، وجعلوني أحس من جديد بالحياة، ذات المتاعب المتشابكة! قلت لنفسي : "الحمد لله أنني لم أمت ! فالزوجة والأولاد ما يزالون بحاجة ماسّة لخدماتي. فمن سينفق عليهم إذا ما مت ؟"

بعد ذلك تعقّدت من السير في الطرقات، وقطع الشوارع، وكرهت مشاهدة الناس الذين يسيرون فيها، وتشعب معتقداتهم وأفكارهم واتجاهاتهم، ورغباتهم وطلباتهم، وأشكالهم وألوانهم، وملابسهم وتصرفاتهم، وأطوالهم وأحمالهم، وحركاتهم التعبيرية، وهم يتحدثون سائرين، وانتظاراتهم عند إشارات المرور الحمراء، أو قطع الشوارع من كل الإتجاهات بدون انتظار أية إشارة! ثم تقع المصيبة، باصطدام أحدهم بسيارة ! فيقولون : "إن السائق مجرم!" ثم يقولون : "هذا قضاء وقدر!" ثم يتصالحون على المتوفى بفنجان قهوة! ثم يعودون لقطع الشوارع من جديد ! قعدت في البيت، ولكن قعودي لم يكن مقبولاً لي، ولا لزوجتي وأفراد أسرتي. ومن كثرة الضغوطات عليّ، شعرت بألم في صدري، وضغوطات واختناق في عنقي! لم أستطع أن أصرخ، بل جحظت عيناي، وامتدت يداي تطلبان النجدة، ثمّ متُّ! آه والله يا أخي متُّ، وانتهت حياتي، وصرت نسياً منسياً! وبعد عدة أيام، أفقت من غيبوبتي، فقالوا لي :" لا تخف، أنت

في المستشفى. كانت مجرد جلطة في الشريان الأبهر." لم أعرف ما الفرق بين الشريان الأبهر، وأبرهة الأشرم، ولكنني عرفت أنني كنت قد متُّ، وشيعت موتاً، ولكن الله قدّر ولطف! فعدت إلى الحياة من جديد، لأمر بالتجربة! وكي لا أقع في ورطة الموت مرة أخرى، قالوا لي :" لا يجوز أن تقعد، فالعمل يعيدك شباباً." ولهذا عملت حلاقاً، تحت درج عمارة تجارية في قاع المدينة، مقابل الجامع الكبير، بجوار المبولة العمومية، قالوا لي :" ذلك مكان (استيراتيجي) للحلاقة، فعندما يبول الرجال، وينظفون مثاناتهم من أسفل، فإنهم يفكرون بتنظيف رؤوسهم من أعلى بالحلاقة." صرت أحلق لـ(أبو ابراهيم)، و(أبو فراس)، وحسنين الأعور، ومحمد الحمدان، وتاجر الخشب المليونير الكحته، وشعبان الأبرص، ولكثير من البائعين المتجولين، وباعة البالة، وأناس مغتربين ومارّة. استمتعت بتلك المهنة، لكون كل من أحلق لـه، يأتيني بقصص جديدة، وحكايات مضحكة، وحكايات مبكية، ومشاكل وفكاهات. فهذا يقول لك:" اليوم بمجرد إعلان الدولة رفع أسعار المحروقات النفطية! ارتفعت أسعار البالة !"

" اليوم قرر البنك الدولي خصخصة الشوارع! باعوها لشريك استيراتيجي، فصرنا ندفع رسوم مرور في كل شارع(خاوة) !"..

" طالبنا بوضع إشارات تحذيرية للمطبات الديمقراطية، التي صارت تملأ الشوارع، فوضعوا اليوم أمام محلنا إشارة، مكتوب عليها (انتبه! خلفك مطب !)" وحكايات كثيرة جعلت الحياة في عينيّ أجمل وأبهى، والحركة بركة! والايراد معقول، ويسدد النفقات، ولكن ابني ؛ المهندس مأمون قال لي : "لقد كبرت يا أبي، ولا داعي لأن تبقى تحلق لأولاد الشوارع ! يسألني رفاقي: ماذا يعمل أبوك؟" فأقول لهم : "حلاق في قاع البلد." فيسخرون مني قائلين : "أنت مهندس كبير (قد الدنيا)! وأبوك حلاق شوارع!" يا أبي اقعد في البيت، وأنا أدفع لك بقدر إيراداتك! أقنعني المهندس من جهة، وضريبة المبيعات التي شاركتني أرباحي مناصفة، نفرتني من جهة أخرى، فوافقت على التقاعد. وبعد أيام طويلة من الاسترخاء، قلت لنفسي :" أنا لست متقاعداً، أنا (متُّ قاعداً!) أعاد الاسترخاء لي جلطةً أشد من سابقتها، فمتُّ موتة نهائية، واختفيت عن الدنيا! صمتُّ ولم أشعر بشيء، ولم أطالب بشيء، لا ديوني على الآخرين، ولا ديون الآخرين عليّ، ولم أنه رغباتي من الحياة، ولم أودِّع أفراد أسرتي وأصدقائي وأقاربي. متُّ هكذا – صدقني- دون سابق إنذار، وكالعادة كان الموت عملية سريعة غير مؤلمة! الحضور هم الذين يتألمون، وأنا أسترخي في عالم لازوردي بلا مشاكل، وبعد فترة ليست قصيرة أفقت من الموت، قالوا لي: "أنت بخير،

اطمئنا!" فاطمأنيتُ! وعدت إلى الحياة من جديد! وأنا الآن خائف من جرِّ الحبل! لا أفهم لماذا يحدث معي كل هذا! وكيف أتصرف، لأخرج من دائرة الموت! تلك المزحة السمجة! التي لا تترك المرء يستقر في هذه الحياة، ويشعر بالراحة وهدوء البال!

قتلني هذا العبد الودود، ليس مرتين بل عدة مرات، فصرت لا أفكر بشيء، سوى موتتي القادمة!

الأسبوع الأدبي-23-7-2005

رغبة في التسوُّق !*

قبضوا على بهية وهي متلبسة بالتهمة! وكان يقف حولها عدد من حراس سوق التموين الكبرى، يحاصرونها ويشهدون عليها، وهي تقف وسطهم مشدوهة! وعربتها مملوءة إلى قمتها بالمواد التموينية المتنوعة!

فمنذ زمن طويل وهم يراقبون، ويشاهدون تلك المرأة وهي تدخل إلى السوق، وتسحب عربة كبيرة فارغة، ثم تأخذ بملئها بالمواد التموينية و.. وعندما أخذتها شرطة المباحث، مخفورة معهم إلى بيتها في وادي الصفيح، بهدف ضبط مسروقات، قد تكون مخبأة داخل بيتها، لم يكن باستطاعتهم الوصول بسيارتهم إلى بيتها، فترجلوا، وساروا بين أزقّة وحواري صفيحية، وجدران من طوب غير مقصور، وشوارع تعترضها بقايا كتل مقلوعة من الأرض، ومرقذوفة في عرض الطريق. وغبار يمتزج مع دخان، وأبخرة بيئة ملوثة، زكمت أنوفهم.

وقبل أن يدخلوا البيت، اصطحبوا معهم مختار الحارة، شعبان المجدِّر، الذي كان سميناً ومُبططاً، مثل برميل الفسيخ القديم. وكان بيدهم ورقة من المدّعي العام، تسمح لهم بالدخول والتفتيش، قال المختار شعبان المجدِّر للضابط غالب بك ؛ ذي الشاربين الغليظين، والقامة المشدودة :"هذا هو كل البيت، غرفة النوم هي كل شيء! هي نفسها غرفة الضيوف، وهي غرفة القعدة والصالون، وهنا ولد الأولاد والبنات، وهنا يتم الطبيخ والنفيخ، وكل شيء! وهنا مصنع التفريخ .. بث مباشر!" وبعيداً عن المرأة، وبصوت منخفض قال لـه:

"هنا يقوم الديك، وتبرخ الدجاجة بين الصيصان! فإذا عمل لـه واحداً! فقد ينكسر السرير ويقع! فيقتل الصيصان الخمسة المتدفئين تحته!" فضحك غالب بيك، بقهقهات ممزوجة مع سعلات، سببها التلوث البيئي الراكد في جو المنطقة الشعبية ! كان المختار لطيفاً

---

* هذه القصة تم تمثيلها ضمن لوحات الفنان ياسر العظمة (مرايا) وقامت الفنانة صباح الجزائري بدور بهية .

ومجاملاً، يهدف إلى إطفاء نار التوتر، وتبديد الشعور بأن المرأة مذنبة! ولكن عيني المحقق كانتا تنظران إلى حائط الغرفة، حيث توجد صورة مكبّرة ملوّنة لأرفف المواد الغذائية، التي تعمر قاعات سوق التموين الكبرى، بمحتوياتها المتنوعة، ومكتوب تحتها عبارة (كل ما تشتهي الأنفس) .

وعندما دخلوا غرفة النوم، شاهدوا ثلاثة أطفال ؛ ابنتان وولد، كلهم بملابس رثّة! هجم الأطفال، وتشبثوا بثوب أمهم، وتحلّقوا حولها، يحضنونها وهم ينظرون بريبة إلى الضيوف، ثقال الدم! كان في الغرفة ثلاجة وتلفاز، وسرير معدني زنبركي، مفرد ونصف، وفراش على الأرض، وفي الحوش الذي سمّاه المجدِّر؛ (اللوبي) كانت توجد مغسلة، وعلى الحائط أمامها مرآة مبقّعة بلطخات سوداء، بسبب اهتراء المادة العاكسة خلف زجاج المرآة، وبجانب المغسلة مرحاض، بابه مفتوح، ومساحته على قدر مقعده العربي .

كان مساعد الشاويش جُحدر أفندي، يكتب محتويات البيت، حسب أوامر غالب بيك، ضابط المباحث، الذي كان يملي عليه، متفقداً كل شيء بنفسه. إذ سألها المحقق:

" اسمك الكامل؟" فقالت لـه :

" بهية جعفر محمود !"

" هل كنت في السوق التموينية الكبرى هذا اليوم؟ "

" نعم كنت!"

" ما هذه الصورة التي تعلقينها على الجدار؟"

" صورة الأسواق الكبرى ."

" ولماذا تضعينها هنا؟" فردّت بعصبيّة :

" معجبه! لماذا تسأل؟ هل ممنوع وضع صور كهذه، داخل البيت؟"

" من أين حصلت عليها؟" فأجابت بكل ثقة :" كانوا يوزعونها في الشوارع، كانوا يرجون المارة ليأخذوها؟ لماذا كل هذه الأسئلة ؟"

وعندما لاحظ الضابط عصبيتها، رقّص شواربه، ونظر إليها بالعين الحمراء صارخاً:

" أنت تخرسين، وتجيبين على أسئلتي، دون أن تسألي!" فجبنت المرأة وقالت خائفة :" حاضر!" فقال لـها آمراً :

" أبلغينا ماذا حصل معك هذا اليوم ؟ولماذا تأتين إلى السوق الكبرى؟

وكم مرة عبأتِ العربة ؟ وأين تذهبين بكل هذه البضاعة ؟ أو ماذا يحصل معك؟ وبالتفصيل الممل." فقالت بهية :" سجل عندك :

- أنا بهية جعفر محمود. أعيش في وادي الصفيح. ولي ولدان، وثلاث بنات. وزوجي أبو عماد لا يجد عملاً، بعد أن طردوه من وظيفة حارس شركة، وجلبوا جهاز إنذار للخدمة بديلاً عنه، كان أبو عماد يحضر لنا بعض المواد التموينية أحياناً، على قد الحال، والحمد لله ! وبعد أن طردوه من الوظيفة، لم يعد يصلنا شيء من هذه الخيرات! وأنا أرغب باستقبال أغراض كهذه، بصفتي ست بيت، ولكننا لم نعد، كما قلت لك..! صرت أشاهد إعلانات كثيرة مغرية بالتلفزيون، تدعو لزيارة السوق الكبرى. وأنا أكثر ما يعجبني هناك، التذوق ! تقابلك صبية جميلة، فتدعوك لتذوق أنواع من لحوم السنيورة، أو قِطَعاً من الجبن! يا إلهي كم أنا أحب الجبن! أيّ نوع من الجبن! مالح، حلو، حامض، قرد ! المهم أن يكون جبناً! أنا فأرة جبن، وقبل أن أتذوق أطعمة المأكولات، فأنا أشمها! وحاسة الشم عندي جزء من التذوّق، فهذا الحراق، تكون رائحته مثل الفلفل، وذاك الممزوج بالثوم يشهي بالالتهام! وتلك اللحوم المدخنة، تشم رائحتها وكأنك مدمن تدخين، فترغب بالتهامها دون كوابح لشهيتك ! قلت لنفسي:

- يا مَرَة، السوق الكبرى أوسع وأجمل، وفيها كل المواد التموينية، منظّمة ومتنوعة، وكل نوع، تجدين منه مئة صنف، الشاي مئة صنف، والحليب الذي لم يدخل بيتنا منذ طردوه من الوظيفة، لا أقصد طردوا الحليب! بل زوجي الذي طردوه!

وفي كل يوم خميس أستحم، وألبس بدلتي الخاصة الفخمة، التي اشتريتها مستعملة، من (البالة)، بالشيء الفلاني، فأبدو مثل نساء المجتمع الراقي! وطز! نعم أكتب "طز!" فهل هنّ نساء المجتمع الراقي، لا يذهبن إلى البالة؟ والله نصف ملابسهن من البالة! بس يا عمي بالتهن، درجة أولى! وبعد الشراء يرسلنها للغسيل بالبخار، فتخرج منها رائحة الفليت، وتصير مثل المستوردة من بلاد برّة! وأما نحن ال.. فنشتري البرارة! وعندما أدخل السوق الكبرى، ألاقي الزجاج الأمامي يفتح (تومتيك) في وجهي، مهلّياً مرحباً! فأدخل رافعةً رأسي، حسبما كان يأمرنا أحمد سعيد في إذاعة(صوت العرب من القاهرة) قائلاً :

"ارفعوا رؤوسكم يا عرب !" فكنا نرفع رؤوسنا، ولكنهم كانوا ينزلونها لنا بعد ذلك ميكانيكياً . كان ابني عماد يدرس شيئاً كهذا، اسمه ميكانيك، كان يقول : "كل شيء سببه ميكانيكي، وأنا لا

أعرف معنى ميكانيكي ولا (كيكي)، ولكنني أعرف أن الولد شاطر، ويريد أن يصير ميكانيكي!

وهنا صرخ الضابط في وجهها قائلاً : " خليك في الموضوع " فقالت متنازلة:

المهم أنا حسبِ النظام، آخذ عربة كبيرة، وأنطلق يا محترم! أنطلق بين تلك النّعَم! ومن كل رفٍّ أمرّ به، آخذ قطعة.. هذه قطعة جبن ! وتلك علبة حليب هولندي مجفف! أمسكها، أشمها! ولو أنها صفيح، لكن والله يا حضرة الضابط إن قلبي ينفتح لها، وأنا أشمها! وإلاّ علب الشاي! ياسلام شو بحب أشمها! كل علبة لها رائحة شكل! تشرح الصدر! أضعها في العربة، ثم أضع منظف وإسفنج الجلي، ومنظف ملابس للغسالة، صحيح إن غسالتنا خربانة، ولكن (أهي) إسمها مشتهيات! وصابون معطّر! ودجاج مثلج مستورد، من أحسن نوع! فنحن لا نحب إلا الدجاج المستورد، لأنها بصراحة، إعلانات الدجاج المستورد مغرية! ولحومها تشهي، وأنت تشاهدها بالتلفزيون! كأن الدجاجة تريد أن تطلع لك من التلفزيون، وتنط في حضنك! ولاّ فوط المطبخ! أحب هذه الفوط الملوّنة؛ الصفر والخضر والحمر والزرق، وكل أنواع العصائر، ومشتقات الألبان..! وباختصار فأنا لا أحرم نفسي من أي شيء، ولا مما يحبه أولادي، إلا وأحطه بالعربة، حتى تطفح ! وتصير مكوّمة مثل الجبل! ولماذا نحرم أنفسنا من متاع الدنيا، ما دامت الدنيا فانية؟ وهل نموت جوعى؟ لا والله! قلت : يا مرة حطي كل مشتهياتك .! وعندما أصير قريبة من حاجز الدفع يا حضرة الضابط، أفتح محفظتي، فلا أجد فيها غير أجرة الطريق - تتحدث بهية، بينما دموعها تنساب على وجهها- تنزل دموعي يا حضرة الضابط، وأنا أودِع عربتي، التِي تعِبت وأنا أنتقِيها بلهفة من كل رفّ، أحتضنها وأودِعها، والله أعز مما أودِع أولادي، وأتركها وحدها تنظر إليّ، الاحظ أن للمشتهيات عيوناً ترنو إلي، وتتعلق بعينيّ، فأخرج ودموعي تنساب على وجهي! وبعدها صارت عندي عادة. تعودت رجلاي على الذهاب إلى هناك، للتفرج على مشتهياتي ! لا تكتب "مشترياتي" أكتب "مشتهياتي!" لأنني لا أقوم بالشراء، بل أمضغ الدخان القادم من جهة الشواء !

صرت أركب الباص، وأروح أتسوق، ليس للشراء، أبداً! وإنما فقط لأشبع رغبتي في التسوق، الاعلانات تقول:

(أشبعي رغبتكِ في التسوّق)، وأنا أسمع الكلام، وأشبع رغبتي في التسوق، ولكنني إنسانة قنوعة ومنضبطة، ولا أعتدي على أموال أحد، فأنا أحضن أغراضي في كل مرّة، وأشم رائحة الحبايب! وأودعها، ثم أتركها لهم وأغادر! ولا تصدقهم يا حضرة الضابط ! فهم

لم يضبطوني، كوني سرقت لا سمح الله! بل إن دموع الوداع، هي التي فضحتني! ويبدو أن الملاعين، كانوا يراقبون كثرة زياراتي للسوق! وبعد ذلك تأكدوا، عندما كنت أتركها لـهم مملوءة، كما هي في كل مرّة، ثم أغادر السوق، فقبضوا عليّ، عند جاجز الدفع!

كانت دموع المختار المجدِّر تنساب من عينيه المغرورقتين، فاعتذر لـها، وسحب الضابط غالب، مساعده، الشاويش جحدر، وغادروا متتابعين، وقررالضابط إغلاق المحضر على مسؤوليته الخاصة.

مجلة الموقف الأدبي 11- 2004

صندوق العجب،
وتفرج يا سلام!

نظر العجوز سرحان إلى زوجته أماني، نظرة حسرة على ما مضى من العمر، وقد صبغ الشيب شعره، وتكالبت أمواج التجاعيد على وجهها، وقال لـها :

"هل تذكرين يا أماني أيام كنا طفلين صغيرين؟ يوم كان الحكواتي يمر بحارتنا، وهو يحمل على ظهره صندوق العجب. أهجم أنا، وتتقدمين أنت خجولة حذرة، فنتفرج على الرجل، وصندوقه العجيب. يتوقف الرجل، وينزل حمله من على ظهره. كان الصندوق على شكل طائرة أباتشي، تهبط على الأرض! فقالت لـه العجوز أماني، وقد ظهرت من بين أسنانها فجوات سوداء، نخرها السوس :

" وهل كان على زماننا طائرات أباتشي مثل هذه التي..؟" فتابع العجوز قائلاً :

" كان لصندوقه أربع أرجل، وعلى كل من الجهتين، ثقبان بحجم العينين. نقف أنا وأنت متقابلين كل من جهة، ملصقين أعيننا على فتحات صندوق العجب، لنشاهد ما بداخله من صور متحركة، على قطعة قماش دوارة، مثل قشاط متحرك، عليه رسومات (أبو زيد الهلالي، وجورج بوش، وسيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد، والجميلة كوردلينا رايس، وهارون الرشيد، وهولاكو زعيم التتار، وحفيده أرطغرل بك، وناطحات سحاب محترقة) ويبتدىء الفيلم، وينطق الحكواتي بصوت عالٍ، ليلفت انتباه أولاد الحارة للفرجة، ثم يقبض قروشهم. وتفرج يا سلام!" فقالت أماني :

" كان الحكواتي يبث صوته الجهور، مرافقاً الصّوَر المتحركة داخل الصندوق هكذا :

- وبعد أن تم غزو مملكة آشور وبابل، وتراجع السومريون والكلدانيون، والخليفة العباسي ؛ أمير المؤمنين، والسلطان سليم خادم الحرمين الشريفين، لفاتح بلاد العرب والمسلمين، وحامي عرش النفط الأسود، أرطغرل بك التتاري السلجوقي، باني أكبر الإمبراطوريات التي لا تشرق عليها الشمس، ولا يصل إليها القمر. عيّن الامبراطور نفسه حامياً للنفط، ووصياً على الخليفة العباسي أمير المؤمنين، ومرسلاً برسالة يطلب فيها يد (سيدة) ابنة أمير

المؤمنين. وما كاد المرسال، ضابط البحرية، ينهي طلبه، حتى انفجر أمير المؤمنين، أمام خلق الله صارخاً :

(وهنا وقف سرحان شاهراً يده، مقلّداً أمير المؤمنين) :

" هذا الهلاكو التتري غير المسلم، والذي يُقبِّل الكلاب من فمها، ويأكل لحم الخنازير، وابن الثانية والستين من العمر، يطلب يد (سيدة) ابنة أمير المؤمنين، وذات الحسب والنسب ! ولكن يا شاطرين،" (هكذا كان الحكواتي يقول لنا) :

"فإن أمير المؤمنين، الذي رفض طلب الامبراطور، كان يعرف في دخيلة نفسه، أنه ملزم بالتنفيذ، ولا يستطيع التهرب من استحقاقات طلب الامبراطور. وبعد أن قتل أفكاره بحثاً عن مخرج، قرر إبلاغه بالجواب.

- أعتذر عن قبول طلب الامبراطور!"

(وبينما أماني وسرحان يشاركان في تذكر حكايات صندوق العجب، وبطريقة سحرية، حدث اندماج بالمؤثرات السمعية والبصرية والجو المشحون، فانبعث نفس صوت حكواتي أيام زمان حياً، جهورياً قادماً من بعيد، وهو يقول):

" لم تظهر يا شاطرين، على وجه الأدميرال ضابط البحرية أية سمات اندهاش. بل كان يتحرك ويتفهم كالرجل الآلي. وينظر من عليائه إلى أمير المؤمنين ويقول لـه :

- تقدم أيها الخليفة، وادخل موقع الإنترنت للامبراطور، الذي أرسى لكم قواعد الحرية، فحرركم من تماثيل متاحفكم، ومهزلة (جلجامش)، ومحى عنكم كل ادعاءات خلق الكتابة، قبل خمسة آلاف سنة، وألغى شرائع حمورابي (العين بالعين والسن بالسن) القادمة من الله، وأعاد لكم شريعة الغاب، يسرح في بلادكم من يسرح، ويمرح فيها من يمرح! ويَنهب من ينهب، ويَسرق من يسرق. وبسبب قصوركم، تعودون من قصوركم إلى خيام البداوة، تحت راية ميسون الكلبية :

(وبيت تعصف الأرياح فيه أحب اليَّ من قصر منيف)، تقدم أيها الخليفة إلى القائد جورج فرانكس، الذي أرسل لكم عطور غاز الخردل، فاستنشقه أهل الكوفة، فماتت به ؛

(عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري)، فأعلن عليهم أهل البصرة الحداد، خمسين ألف سنة مما تعدون... تقدم أيها الحشرة القذرة، لإبلاغ الامبراطور، الذي لو علم أنكم لن تقدموا لـه صاحبة الصون والعفاف، والشرف الرفيع (سيدة)، فانه سيفتح معكم تحقيقاً في هولوكوست (السبي الصغير)

ويحمّلكم مسؤولية نبوخذ نصّر، والتي لو حسبتموها مالياً، فإن كل (نفط العرب للعرب) لن يسدد تعويض قتيل واحد من قتلى السبي الصغير.. لقد انتهت أيام قبولنا بثلاثة مليارات دولار، تعويض قتلى الطائرة المنكوبة.. والآن سنطالبكم بمليارات الأضعاف من الذهب الأسود، لسداد نفقات هجماتنا عليكم! لن نغفر لكم أيها العرب، لأنكم جعلتم أبناءنا يطلقون عليكم النار، فيتعقدون نفسياً لهذا الدمار!

ووقفت أمام الخليفة جارية سوداء، من جواري الامبراطور أرطغرل بك، وهي تنكش ثقب أنفها بإصبعها الصغير بلا مبالاة ." فقالت له العجوز أماني :

" الله يقرفك أيها الحكواتي! لقد أقرفتنا بهذه التي تنكش (زفتها)! خلص، اصمت! أنا سأمثّل دور الجارية السوداء أمام أمير المؤمنين!" ثم وقفت أماني تمثل الدور :

" أظن أنك قد أوصيت وصيتك، وعيَّنت ابنك ولياً للعهد، وقسمت ورثتك بين أولادك وبناتك، قبل أن تدخل في هذا السرداب، الذي من يدخله مفقود مفقود مفقوووود يا ولدي!"

فعاد صوت الحكواتي إلى مسرح الأحداث قائلاً :

" والذي حصل يا أولاد يا شاطرين، أن أمير المؤمنين، أخذ يضرب أخماساً في أسداس، ويفكر قبل أن ينطق، وكأنه ذاهب إلى مسابقة (من سيربح المليون) لا بل من سيحمي عنقه من القطع، ومؤخرته من الخوزقة، والصلب ستة أشهر على ميدان دجلة! فكر الخليفة الأشوري ثم قال" (وهنا وقف سرحان يمثل دور الخليفة):

" إنه لم يحدث قط، أن طالب أحد غزاة بغداد السابقين، بمثل هذا الطلب! كلهم كانوا هكذا سفاكي دماء، مدمرين للحضارة، سارقين لأسود بابل العملاقة، ونفط العرب للعرب، ولكن طلب بد سليلة التاريخ العريق (سيدة)! هذا ما لا أقدر عليه، على الأقل، أمام الخلق! إنني سأموت قبل أن أوافق على إعطائه هذه الغنيمة !" وعاد صوت الحكواتي يهدر :

"ولكن جارية الامبراطور أرطغرل بك السوداء قالت:" (وهنا وقفت أماني لتمثل دور الجارية فقالت) :

" يا أمير المؤمنين، لا تعارض الإمبراطور، فأنتم تعرفون أنه أغبى قائد في التاريخ! وعيناه تقدحان شرراً، ونظره ضعيف، ويده طرشاء! وبنفخة من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها، تكونون كلكم في خبر كان !"

وقال الحكواتي :

" عندما سمع الامبراطور أرطغرل تلك الأحاديث الجانبية، قال أمام عدسات التلفزة العالمية..."

وهنا قام سرحان، مقلّداً دور أرطغرل بك:

" ما أعجبهم من قوم هؤلاء العباسيون. لقد فتح أجدادكم بلاد الشرق والغرب، كما نفتحها نحن الآن، وبنوا أجمل المدن، ولكن انظر ما هم عليه حكّامهم اليوم! أخذ منهم كل ممتلكاتهم، فيقابلون الأمر بالرضى، وأستحوذ على حاضرتهم، فيغتبطون ويغدقون عليّ الهدايا! ويقول لي أمير المؤمنين :

- أعطيك كل ما أعطاني الله من البلاد، وأفكك لك براغي وصواميل جميع المؤمنين، الثائرين الإرهابيين المقاومين لغزوك بلادهم، والذين عهد إليّ بمصائرهم! ولكنني إذا طلبت منه أن تكون ابنته (سيدة) صديقة وعشيقة لي، فإنه يثور، ويطالب بالذود عن شرفه! أفيكون فخذا عذراء، هما الحمى الوحيد، الذي لا يزال مستعداً للقتال من أجله؟"

وقال صوت الحكواتي القادم من بعيد:

" وللخروج من المأزق، قال لـه جورج فرانكس :

- إذا لم يعطوكها أيها الامبراطورالعظيم، ستأخذها عنوةً، كما أخذت بغداد !"

ونظراً لأن السياسة يا شاطرين هي فنّ الممكن، أذعن أمير المؤمنين بقوله:" نعم." والغمُّ يعتصر فؤاده، وصارت (سيِّدة) مجرد صاحبة للامبراطور، كباقي السبايا والمحظيات المفروشات تحت مضجعه الرغيدٍ، وأرسل الامبراطور هدية ترضية لأمير المؤمنين، عبارة عن كتيب، فيه رسومات لطيور بلاد الغرب الدنياصورية المنقرضة.

ولكن الصلف والغرور لم يتعززان، فما لبثت جيوش الإمبراطور أن تقهقرت، تحت سنابك المقاومة الشعبية الشرسة، والتي لم يخلق مثلها في البلاد! وما لبث الإمبراطور أن مات، بعد خمس سنوات من صحبة سيدة. تماماً كما انقرضت ديناصوراته المتوحشة !

فقالت أماني لزوجها :

"ما أشقاك يا سرحان! لقد متّعتني بذكريات قصص صندوق العجب!" فقال لها سرحان :

" رأيت أنك قد انسجمت بالدور، فقلت يا ولد، أكمل القصة!"

عند بوابة السجن!

طفل فلسطيني يخرج من السجن برفقة أمه، وعمره سنتان، بعد قضاء محكومية فعلية مدتها ثلاث سنوات !

ليست هذه حزّورة أو فزورة، أو لغزاً تحار في فهمه، هكذا نشرت الصحف الخبر، الذي مفاده أن طفلاً فلسطينياً، قد خرج من السجن وعمره سنتان، بعد أن قضى حكماً فعلياً في السجن، مدته حوالي ثلاث سنوات! وانطلق الصحفيون، ونساء الإعلام، باتجاه بوابة السجن العظيم، لينقلوا الخبر، ويستفسروا عن سر الحكاية! فكيف يخرج الطفل، وقد قضى محكومية ثلاث سنوات، بينما عمره لم يتجاوز السنتين؟

وعند بوابة السجن، تجمهروا حول الطفل وأمه وأبيه، الذي جاء ليستقبل السجينين معاً! فسألت إحدى الصحفيات :

"أين هو الطفل؟" وقال آخر :"ها هو! يا حبيبي! ما أجمله !

عيناه خضراوان مثل خضرة جبال الكرمل!" وقال ثالث:

" ما أحلى بهاء وجهه! صمته! التصاقه بأمه ! تجهم وجهه!"

وقالت صحفية شقراء:" لاحظوا رباطة جأشه! وكأنه شاب راشد ! احتضان أبيه لـه ولأمه معاً!"

تجمهر رجال ونساء الإعلام حولهم. وحشدت الكاميرات، وأجهزة التلفزة العالمية. خنقوهم بأسئلتهم المتلاحقة.

"هل اعتقلوكِ قبل ثلاث سنوات؟وهل قضيتما فعلياً حوالي ثلاث سنوات في السجن؟"

" وهل سبب اعتقالكِ، ادعاء بأنك سهلت مهمة مقاومين، في الهرب مروراً من داخل بيتك، يقولون إنهم كانوا مطلوبين بتهمة المقاومة؟" "وهل خبأتهم فعلاً، أو سهلت مرورهم من..؟"

" هل كنت حاملاً بالشهر الأول عندما اعتقلوك؟ وهل زوجك يعرف ذلك؟ هل انقطعت عنك الدورة الشهرية، وصرت تستفرغين الطعام ليلة اعتقالك؟"

"هل اعتقلوك في بيتك، وكبلوك بالأصفاد بيديك ورجليك، ورموك داخل سيارة الجيش؟ هل كانت التحقيقات صعبة؟مؤلمة. معذبة. مريرة؟"

"هل تحملت عذاب التحقيقات وأنت حامل، أم انهارت مقاومتك من أول تعذيب تعرضت لِـه؟" هل يطاق التعذيب داخل المعتقل، وهل صحيح أن المعذّب (يُتمسِح) بعد أول ممارسة للعذاب؟"

" هل كانوا يعذبونك أمام طفلك، أم كانوا يأخذونك بعيداً عنه، ويُسمعونك صوت صراخه من وراء حجاب، ويقولون لك : إنهم الآن يعذبون الطفل، بانتظار اعترافك بالحقيقة ؟"

"هل كانوا يجوّعونه مبعداً عنك كي تعترفي؟"

" هل كنت تستجيبين تحت عذاب تجويع طفلك، أو سماع صراخه من وراء حجاب؟وهل كان الطفل يبكي، وهو ممنوع من الرضاعة؟"

" هل كانت السجّانات يحملنه بعيداً عنك، ويمنعنك من إرضاعه؟" "هل كنت عند التحقيق، تمشين داخل سراديب معتمة، وأنت معصبة العينين؟"

"هل تضرر الحمل من جراء التعذيب؟ وهل كنت تتعثرين، وتقعين، وتخافين، وأنت تسيرين داخل السراديب المعتمة، وأنت معصوبة العينين، وجنازير الأصفاد، تكبل رجليك الرقيقتين؟"

" كيف صمد الجنين داخل سراديب الرطوبة، والعتمة والرعب، ثمانية أشهر؟ وهل تعتقدين أن الطفل كان معك يقاوم ؟"

" هل فكوا جنازير الحديد عن رجليك داخل المستشفى، يوم ولادته؟" "كم ساعة سمحوا لك بالبقاء داخل المستشفى، بلا أصفاد، حين الولادة ؟" "هل فكوا أصفاد رجليك قبل الولادة بساعة، أم بساعتين؟"

"بعد كم ساعة من الولادة أعادوا تصفيد رجليك بالحديد، ثم أمروك بالعودة سيراً على القدمين الداميتين المتورمتين، إلى زنزانة السجن؟"

" هل سمحوا لك باحتضانه يوم ولادته، أم كانت السجانات تقوم بالمهمة؟ أما زلت ترضعينه حولين من ثدييك، ليستطيع البقاء والنمو؟"

"كيف استقبلت يا أباه خبر ولادته؟ هل كانوا يعرضونه عليك من وراء زجاج السجن، عندما تزورهما؟ وهل كانت أمه تمسك ذراعه، كتلة اللحم الصغيرة، وتشوح لك بها من خلف حجاب الزجاج؟"

"هل كان الطفل يبتسم لك من خلف الزجاج، أم كان عابساً متضايقاً من حشر السجن؟"

"هل كنت تشاهد في عينيه تحدياً ومقاومة، أم تعاسة وشقاءً؟ هل كان بصحة جيدة، أم هزيلاً مصفراً من قلة تعرضه للشمس؟"

"هل سمعته ينطق بكلمة بابا، أو ماما، أم أن ثقافته كانت ثقافة معتقلات، وكلام معذبين؟"

"هل كان الطفل محكوماً مع أمه من الناحية القانونية، ويتحمل معها مسؤولية تهمة تهريب المقاومين، بصفته جزءاً لا يتجزأ من لحمها ودمها، أم أنهم كانوا يعاملونه معاملة بريء؟"

" هل كان بإمكانك أخذ الطفل، وإخراجه من السجن بعد فترة إرضاع أمومية ضرورية، لتكمل بعدها إحدى القريبات في القرية إرضاعه، أم أن الطفل كان يقضي محكومية مع أمه، كطاقم متكامل؟" ماذا قال الطفل لك عندما بدأ النطق، وهل بدأ الحديث بجملة كاملة؟"

"هل كان يعرف أنك أبوه، وما معنى الأب بالنسبة لـه ؟"

"هل منعوك من إرسال ألعاب لـه، بحجة أن يكون بداخلها مواد ممنوعة؟ هل كان الطفل يشاهد أطفالاً آخرين، مسجونين معه في نفس السراديب، فيلعب معهم كالجرذان، أم كان يكتفي باللعب على صدر أمه؟"

"هل كان يريد الخروج من الزنزانة المعتمة، والانطلاق معك في أرض الله الواسعة، أم كان يرغب بقضاء محكوميته مع أمه؟"

"ما هو شعوركم وأنتم تجتمعون معاً لأول مرة، بعد ثلاث سنوات من السجن، وسنتين من عمر الطفل؟"

وبسرعة جاءت سيارة أجرة، فأبعدتهم عن أسئلة الصحفيين، وكاميرات التصوير، وحملتهم بعيداً عن بوابة السجن!

فرحان وظوجان!

استغرب العامل فرحان، رأي المهندس ظوجان، ولكنه استمر يتبعه، غير آبه لا بتشغيل المحركات، ولا بتكاليف الحياة، فلقد كان جديداً في العمل، ومنبهراً بنساء بركة السباحة شبه العاريات، وبما تظهر وتُخفي ملابسهن، التي لا تعدو كونها خيوطاً رفيعة! كانا يسيران في سرداب طويل جداً، ضيق جداً، سقفه مرتفع جداً، في تسوية منخفضة جداً داخل البنية التحتية للفندق العظيم عندما تنهد العامل فرحان، وقال مبتهجاً بحسرة: "لعنة الله على حياة آخرها الموت!" فصرخ به المهندس ظوجان قائلاً: "لماذا لا تقول: إن أفضل ما في الحياة، هو أن فيها موت؟"

وكان المهندس ظوجان، يسير أمامه طويلاً نحيلاً، كعمود كهرباء، يتحرك في السرداب اللانهئي، والحر اللاهب يضغط عليه من جميع الجهات، فيكاد يخنقه، والعرق يتصبب من كل ثناياه ، فيفيض خارج جسده، فتراه ينقط عرقاً من قاعه، باحثاً عن حل سريع لمشكلة التبريد، الذي تعطل فجأة في الفندق، متفحصاً هنا وهناك، بلا فائدة، خائفاً من إنذارات المدير، من جهة، ومن جهة أخرى، تحديات زملائه، المنافسين لـه على الوظيفة، والتي كلاها لا ترحم! وفي نفس الوقت احتشدت في ذاكرته حياته البائسة، وهو يقارنها بحياة المليونيرات من أصحاب، وزبائن الفندق، الذين يجتمع معهم، ويلتقي بهم، خلال عمله المهني في الفندق، فلقد صار عمره أربعين سنة، وهو لا يزال غير قادر على تكوين نفسه؛ لا مادياً، ولا معنوياً، لا في مهنته، ولا داخل مجتمعه.

" تزوج يا ظوجان." يقول لـه أهله ومعارفه، فيجيبهم مخنوقاً :

" لم يبق في العمر مدّة، كي أتزوج، وأنجب أطفالاً، أستطيع أن أراهم يكبرون أمامي. سأموت هكذا من شدة العرق، أو من شدة البرد، أو من شدة توبيخ مدير الفندق لي، قبل أن أشاهدهم يكبرون، فلا أستمتع برؤيتهم رجالاً مستقلين! وحتى لو رغبت في الزواج، فإن الصبايا الجميلات يفضلن علي شباب العشرينات، وحتى سن الثلاثين. وحتى لو قبلت بي واحدة معقولة، فإنها تريد حفلة عرس صاخبة، في مثل هذا الفندق، تكلفني كل مدخراتي! وبعد ليلة الزفاف، فإنها ستطلب بيتاً على شكل فلّة، وسيارة، وخادمة وحارس عمارة، وسائقاً.. وكل هذه المتطلبات، لا يستطيع تحقيقها، سوى من استطاع إليها سبيلا ! يأتي السياح فيدفعون الشيء الفلاني، ويخلعون ملابسهم، ويسبحون في برك ماء زلال، في الوقت الذي لا أستطيع أنا مهندس أجهزة الفندق، والقائم على

صيانة مرافق الخدمات الترفيهية للزبائن، أن أدفع فواتير بنزين سيارتي القديمة، وفواتير المياة المتزايدة، والكهرباء والهاتف والسجائر، وتكاليف والدتي المريضة، ومصروف أختي الصغيرة، والتي ما تزال تدرس في الجامعة، وفوق كل هذا، مطلوب مني أن أوفر شخصياً لمستقبل مشرق عزيز!" فكر في كل هذا، فصرخ بتوتر وعصبية، رادّاً على العامل فرحان :" لماذا لم تقل:..؟" لم يفهم فرحان ما يقوله ظوجان، فلقد استمر مزهواً بهذه الحياة،خاصة بعد أن قبض أول راتب، لقاء عمله الجديد، وقد كان قبل ذلك يرعى أغنام أبي شداد، تحت شمس الصحراء الحارقة، وعطش الوديان الجافة، وجوع الرمال القاتلة، ووحوش البرية المرعبة، وأفاعيها السامة، وأشواكها المعذبة، فعلمه أبوه صنعة، أهلته لدخول الفندق العظيم. فصار يأكل ويشرب ويعمل، في فندق (لا ترون فيه شمساً ولا زمهريراً) حيث الظل ظليل، والتدفئة شتاءً، والتبريد صيفاً، والنساء على بركة السباحة، يشرحن القلب!

قابيل وهابيل

بعد أن هاجمت الآليات بيتهم، وحرفته مع ما جرفت من بيوت وعمارات المدينة، وأخذت بطريق أسنانها كل أشجار البساتين (والتين والزيتون وطور سينين، وهذا البلد الأمين) وجد هابيل نفسه فجأة في بيت أخيه قابيل.. صحن ملقى على الأرض، فيه آثار طعام، قد تكون غرفة مطبخ، أو شرفة مطلة على.. يجلس قابيل، يتناول لقمة خبز.. لم يكن هناك طعام للأكل..بل كان آدم ؛ والد قابيل يقف هناك، ينظر إلى هابيل نظرة شزراء، تنبع من معدة زائفة، وأمه حواء تشيح بوجهها عن ابنها هابيل، تتجاهله، أو قد تكون غير منتبهة لوجوده أصلاً ، أو إنها لا تراه بالفعل. وكان أخوه قابيل يقف في باب الغرفة، لا يحدث أحداً، جاحظ النظرات، متحفزاً، مستعداً للانقضاض.. انتهى هابيل من مضغ لقمة الخبز.. قام وخرج من الغرفة.. فتح باب الشقة، فوجد أمامه باباً آخر مغلقاً، ففتحه.. ثم باباً ثالثاً، ورابعاً.. وتاسعاً.. وتسعين، وكلما كان يفتح باباً، يفاجأ بباب آخر مغلق فيفتحه.. كاد أن يختنق من تكرار المحاولات، وضغط البيت، ورائحته الخانقة، واندفاعه الذي لا نهاية لـه، إلى أن ضغط بجسده ويديه الأبواب الباقية، فرمى بكل ثقله على الباب الأخير، ففتحه وخرج مندفعاً إلى بيت الدرج.. نظر إلى المصعد، ضغط زر الباب، فلم يفتح المصعد، فاندفع راكضاً على درج العمارة.. على الجانب الأيمن للدرج شبك حديد حماية، قضبانه غليظة، متصالبة ومتشابكة، وترتفع من مستوى الدرج، وحتى سقف البناء.. كان ينزل في سرداب متدرج، يمينه مشبك، ويساره جدار العمارة. نزل درجات كثيرة، لا نهاية لـها، حتى وصل إلى القاع، انتبه إلى أنه صار في مكان سحيق من قبو معتم. راح يتجه يميناً، فيجد أمامه حائطاً موصداً، ثم يركض باتجاه اليسار، فيصطدم بحائط موصد، ثم ينتبه لكونه أخطأ خارطة الطريق، فيصعد الدرجات عائداً من قبو تحت الأرض، باتجاه السماء، فيركض ويركض ويركض، على درجات طحلبية لزجة رطبة معتمة، لم يشاهد معالمها، بل شعر أنه قد داس على جرذ ضخم الجثة، يتلوى تحت قدمه، فصوصو الجرذ بصوت مخنوق، قبل أن تنطفىء محركات لـهيبه، واستمر هابيل في الركض، صعوداً على الدرج الداخلي المعتم في العمارة، فشعر بتعب شديد، وصار يلهث لـهاثاً خانقاً، ويخرج من فمه بخاراً أسود مثل دخان قطار هرم .. وبعد جهد جهيد، وعرق شديد، شاهد بصيص نور يندفع من شق باب، فانطلق باتجاهه، فإذا به باب العمارة، فقذف نفسه خارجاً من هناك، وكان

أخوه قابيل يقف عند الباب مشدود القامة، جاحظ النظرات، صامتاً، يده اليمنى في جيبه، واليسرى تنطلق في الفضاء، باحثة عن شيء، بتوتر وشدوه! لم يتحادثا، بل بقي هابيل يركض مندفعاً خارج العمارة، ولكنه لم يشاهد مخرجاً، بل واجهته درجات جبلية أمام باب العمارة، فاضطر لصعودها بسرعة لاهثة، واستمر يركض صاعداً، والأرض حوله خلاء، وعلى الجانبين سلاسل حجرية أفقية زراعية، والدرج العريض يشقها من المنتصف، وحتى القمة، وصل هابيل إلى القمة، فوجد في نهاية الدرج سوراً عريضاً يسد الأرض، ويصل إلى عنان السماء، وكانت هناك قبور دارسة، تطلع منها هياكل عظمية لرجال يئنون ويتألمون، ونساء يصرخن ويولون وينحن، بأصوات هادئة، تغمر الجو بخوف كئيب، وأطفال لحميون عراة، ينطون راكضين وراء بعضهم، خارجين من فوهات القبور، وداخلين في جحور قبور أخرى، حيث ينامون هناك، وهم يرضعون من أثداء أمهاتهم، وبعضهم يبكي بكاء طفل مرير! وكانت هناك على رأس الجبل، طريق ترابية أفقية على يمين السد، فسار هابيل بها، حيث كانت تأخذه بشكل دائري، فيركض معها، وهي تدور به بين المزارع المتسلسلة بالسلاسل الحجرية، وهو يبحث عن مخرج، لينفذ منه إلى بيته، ولكن الطريق كان يضيق، ويختفي بين دغل وكثبان رملية ناعمة صفراء، مثل جلد أفعى صحراوية قارحة، ورمال على شكل سنامات جمال لا نهاية لها! وعندما انتهى امتداد السد، ظهرت سلاسل حجرية مرة أخرى، فحاول أن يصعدها، ويقفز منها، ولكنها كانت عالية، يصعب ارتقاؤها، وعندما بذل جهداً فائقاً، وتسلقها بالقوة، وجد فوقها شبكاً مقوى من الحديد المتصالب، يمنعه من التجاوز. حاول حشر أنفه ووجهه بين تقاطعات الحديد، فلم ينفذ منه سوى رأسه، فشبك داخل الحديد، وبقي جسده معلقاً ومتدلياً كالغسيل المنشور على شبك حديد، وعندها شاهد أخاه قابيل يقف إلى جواره شارد النظرات، جاحظ العينين، مندفع النية، ثابت العزم، لا ينبس بهمسة.. شعر هابيل بشعور (بباي)، عندما كان يشرب السبانخ، فتأتيه قوة هائلة، وعزم شديد، وبقدرة قادر، شد الحديد بكلتا يديه، ففتح ثغرة، انزلق منها ونفذ! حاول أن يقفز من قمة الجبل العالي، نظر أمامه فشاهد الأرض مقطوعة بشكل قائم، وأن الأرض تحته تبتعد مئات الأمتار، وكأنه يركب طائرة مروحية، يطل منها على الأرض السحيقة البعد تحته، ومن هناك شاهد على الأرض الترابية سجناً كبيراً، يحده سور كبير، وأسلاك شائكة كبيرة، وبداخله سيارات مفجرة، وأخرى محترقة، وأشلاء جثث مترامية هنا وهناك، وكلاب حراسة عسكرية، تمسك بأذرع جثث آدمية لم تمت بعد، فتجرها على الأرض الترابية، وتدور بها بشكل دائري، والدماء ترسم دوائر حمراء

خلفها، وآليات حفر عملاقة، تثبت كل منها اصبع مطرقتها الحديدية الضخمة المدببة، فوق منتصف العمود الفقري لسجين منبطح على بطنه، ودون أن تشغل آلياتها، بقيت واقفة ملقية ثقلها فوق أعصابهم الرئيسة المرافقة للعمود الفقري لكل منهم، وهم يصرخون صرخات تصل إلى الله! وكانت في الجو طائرة من نوع أباتشي، تعين بأشعة ليزر الدقيقة، فتضع دائرة ضوئية على رأس عصفور لحمي صغير، داخل عش كبير، يختبىء في جوف شجرة رومية عملاقة، فيذوب العصفور، ويتصاعد منه دخان، فيشم هابيل رائحة لحم محروق، يكاد يخنقه! وكان المجندون بملابس مشبك زرد الفولاذ، يحومون حول سجنائهم، مثل الغربان والصقور الجارحة، وهم يتضاحكون، ومجندة مدربة، تمر بكلبها الحبيب، الذي يتحفز أمامها بحجم الجحش، على السجناء المتناثرين هنا وهناك، وهي تحاول أن تشدّه إلى الخلف، بحبله المتين، بينما هو يندفع بشراسة وتحد، وعنجهية وعنفوان، وطاقة هائلة، ولكنها كانت تسمح لـه فقط بتذوق أذن هذا السجين، فيقرقطها، ويبقي على ثقب الأذن سليماً من غير سوء، ثم ينهش قرقوشة أنف مترنح آخر، فيتلذذ بقرقشتها، ويبقي للسجين حرية التنفس، بينما المجندة تضحك وتضحك، وتقول للسجين : "إنا فتحنا لك أنفك. فتنفس بحرية، مارس حريتك على طول..اشعر بالحرية.. افرح بالحرية. تمتع بالحرية. تلذذ بالحرية.. انتعش بالحرية.. تحرر بالحرية.. حررالحرية.. الحرية.. حرية .. رية..ية...إه....لم يستطع هابيل البقاء في هذا الجو القاتل، وكان أخوه قابيل ما يزال واقفاً متشدداً، جاحظ النظرات، متوتراً ساهماً مفكراً. كاد هابيل أن يموت، تحت كل هذه الضغوط، فحزم عضلاته، وضغط على أعصابه، فأبرز قوة فائقة، وفجر الموقف من أصله، فصحا من كابوس نوم رهيب!

أعدقاء!

ها هو أبو سليم وأم سليم، وعدوّاهما الصديقان، أبو جهاد وأم جهاد، يحضرون العرس البهيج، ويتقابلون وجهاً لوجه، ولو من بعيد، ودون سلام، ولا كلام، وهم يتذكرون لقاء شاطىء الغرام، وقطيعة الممسحة الحديدية المحرجة، التي شوشت ونكدت عليهم، فرحة العرس البهيج !

يومها ذهبت أم سليم، هي وزوجها أبو سليم، لزيارة دار (أبو جهاد)؛ مجرد زيارة صداقة، وفشة خلق كالعادة .. وقفت أمام الباب الرئيس، بجسدها الضخم بحجم جسد بغلة، عليها أقمشة ملابس، تغطي هيكلها المنتفخ، وضغطت زر جرس الباب الرئيس، (مثنى وثلاث ورباع)، فلم تسمع جواباً من الداخل .. لم يكن هناك أحد داخل البيت . انتبهت أم سليم إلى أنها تقف فوق ممسحة أحذية حديدية مسننة، أعجبت بها، فأشارت (لأبو سليم) الواقف إلى جوارها نحيلاً، مثل عمود كهرباء منطفىء! فهم أبو سليم طلبها، فرفض تنفيذه، ولكن تحت إصرارها، ونظراتها التي كانت رومانسية قبل الزواج، ولكنها صارت تراجيدية بعد الزواج، جحظته بعينيها المتسلطتين، فوافق، والتقط الممسحة الحديدية، وأخفاها تحت ردائه، ثم نقلها بسيارتهما، ووضعها أمام باب بيتهما.. ويا ليتها مباركة يا هذه الممسحة الحديدية القوية العملية. هكذا كانت أم سليم تثرثر قائلة:

" الآن نستطيع أن ننظف أرجلنا عند دخول شقتنا، خاصة في أيام الشتاء، والدنيا مطيِّنة، كنت أتمنى منذ زمن، حصولنا على مثل هذه الممسحة. لاحِظ كيف أن شفراتها مسننة بشكل قائم، ليفرك الداخل بها حذاءه، ثم يدخل البيت، نظيفاً من غير سوء!" لم يجبها أبو سليم، بل بقي صامتاً محرجاً، كارهاً لمثل هذه التصرفات، ولكن ما باليد حيلة!

ويا فرحة ما تمت، فحينما قرر أبو جهاد وأم جهاد، رد الزيارة إلى دار (أبو سليم)، ووقفا أمام الباب الرئيس منتظرين انفتاحه، شاهدا ممسحتهما الحديدية، التي افتقداها سابقاً، وهي تقعد صاغرة على أرض المدخل، فلم تتمالك أم جهاد أعصابها، فولولت وصرخت بأعلى صوتها، بدل أن تنتظر ترحيب أم سليم بها! وولّعت بين

الفريقين، ولم يرحمهما من المذابح، سوى الله والجيران، الذين أطلوا من الأبواب والشبابيك المجاورة، والطوابق العليا والسفلى، ومطوا رؤوسهم مثل رؤوس السلاحف الخارجة من الخارجة من أغلفتها العظمية، واقترحوا على الضيفين، فك الارتباط، وأخذ ممسحتهما، والاتكال على الله!

كانت أم سليم تُلَقلِق، وتصول وتجول، وسط حضور العرس البهيج، وتستقبل هذه، وتودع تلك، وكأنها أم العريس! وعلى طاولتها، تأمر وتنهى زوجها قائلة :

"لا تسلم على النساء، تماماً مثلي، فأنا لا أسلم على الرجال، لأن ذلك حرام في الإسلام، فإذا سلّم رجل على امرأة، فإن سيخاً من نار، يخترق يديهما، ويدخل إلى قلبيهما يوم القيامة!" فقال لها أبو سليم ساخراً ومراوغاً :

" يا لطيف!" وعندما جحظته بعينيها الودودتين، وتمعنت النظر فيه بصلافة! قال لها مرتبكاً : "حاضر.. صحيح..أمرك!"

لم يستمتع أبو سليم بالعرس البهيج، وهو يشاهد صديقه اللدود، أو (عديقه) (أبو جهاد) من بعيد، لأنه كان طوال الوقت، يستعيد ذكرياته، عندما خرج قبل شهرين من تابوت أم سليم، وغادر إلى تلك المدينة الساحلية، بهدف سياحي بحت! متمرداً على كل الأعراف والمواثيق. وهناك في مكتب عقاري، تعرف بامرأة صبية اسمها فاتن، فشرب وإياها شيئاً في مقهى مجاور، ثم سارا بمحاذاة شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وعرفته بنفسها قائلة له :

"أنا أعمل موظفة تسويق مبيعات، في الشركة العقارية، وإنا أبحث عن زوج مناسب، يحقق لي استقراراً أسرياً، وعشاً زوجياً، ألجأ إليه بعد عناء العمل.." وعرّفها أبو سليم بدوره على نفسه، وأخذ يحدثها ويقنعها بقبوله، وبصراحة أراد أن يجدِّد شبابه، ويتمرّد على كل القيود، والأقفاص الحديدية، التي تفرضها عليه أم سليم. فقال لفاتن :

"اسمي حمدان المهول، وأنا أعزب، ورجل كسِّيب، وأنا معجب بك يا فاتن، وأريد ان أتزوجك." وبعد طول سيرة على الشاطىء، قال لها: "بصراحة! أنا من النوع الذي يريد أن يشاهد، ويتعرف على كل شيء في المرأة، قبل الزواج بها. فمن حق الرجل أن يتفحّص ويعاين (البضاعة) التي يريد شراءها!" فقالت له فاتن : "أنا بستحي يا الله !"

وفي تلك اللحظات الدراماتيكية، وبالصدفة، التي هي أسوأ من ألف ميعاد، قابلهما على شارع الشاطىء، صديقه اللدود أبو جهاد،

الذي كان حلقه ناشف وهو يتمشى وحيداً على شاطىء الغرام.. ولكن بالاتجاه المعاكس. كانت مفاجأة غير متوقعة طبعاً .. سلّم أبو جهاد على حمدان المهول، وقال لـه : "سلامات يا أبوسليم!..كيف حالك يا ابو سليم؟ والله أنا الآن أتيت من هناك، زوجتك أم سليم بخير هي وكل الأولاد، وكل البنات، ويسلمون عليك .."

كانت الصبيَّة فاتن تقف بين الرجلين، تنظر إليهما وتس‌تكشف كون الرجل متزوجاً، وليس أعزب، وله دزينة من الأولاد، وفمها مفتوح بانبهار ! شعر أبو سليم أنه قد أسقط في يده، فقال (لأبو جهاد) :

" لكن يا أخو الشر..أنا لم أرسلك لتأتيني بأخبار أم خراء، كلجنة(تقصي الحقائق التابعةٍ للأمم المتحدة ضدنا!) ولم أسألك عن الأولاد والبنات، لكي تطمنّي إنهم بخير! قال هذا، وتفرق الثلاثة كل في طريق!

(ويا خبر بفلوس، بكره يبقى ببلاش) نقل أبو جهاد، إلى أم جهاد، خبر إلقاء القبض على أبو سليم متلبساً بالغرام بالحرام، في شارع الضباب، فنقلته الحرمة إلى جارتها، وجارتها نقلت الخبر إلى جارتها السابعة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى على الجار، وحتى السابع جار... فاستفسرت جارتها السابعة من أم سليم عن الموضوع، فجن جنون الأخيرة، ومن يومها أخضعته للرقابة الدولية التابعة للأمم المتحدة - فرع دارفور- ولم تعد تتركه يغادر، ولو إلى الحمام، إلا برفقتها، ولذلك استضعِف أبو سليم، وصار يسمع الكلام، وينفذ تعليمات أم سليم، حتى لو لم يكن مقتنعاً بها، مثل تناوله للممسحة الحديدية في ذلك اليوم الأغبر!

الديك الأحمر!

أرسلتني أمي إلى دكان (أبو جلدة) في مدينة أنصار 20، القريبة من معسكرنا أنصار 13، لشراء دجاجة مزارع، من ذلك الدجاج الأبيض الذي يذبح داخل المحل، ولم تفتني مشاهدة الديك الأحمر، المتبختر في ساحة المحل، والكبير بحجم الديك الرومي، يقف عند باب الدكان، يراقب الدجاجات المعدة للذبح داخل القفص، فإذا فلتت دجاجة من سكين اللّحام، وانطلقت تبقبق فوق أرض دكان الدواجن، أو خرجت إلى الشارع العام، فإن الديك الأحمر يلحق بها بين الناس المارة في الشارع، أو بين عجلات السيارات، يركض خلفها وهو ينقرها من رأسها عدة نقرات، بمنقاره الفولاذي الأحمر، فيسيل الدم من رأسها، ثم يدور خلفها، فتركض أمامه، مأمورة مرعوبة، فيوجهها إلى بيت الطاعة، فيمسكها اللّحام أبو جلدة، وينتقم منها، بذبحها أولاً قبل غيرها من الدجاجات المستسلمة للسكين.

كان ذلك الديك مشهوراً في دكان(أبو جلدة)، حتى إن كثيراً من الناس، كانوا يذهبون للشراء من جهة، ولمشاهدة رعب الديك الأحمر من جهة أخرى.

وعندما شاهدت الديك، قفز إلى ذهني المراسل أبو مقصود، نحيل الجسد، في الخمسين من عمره، والذي اختاروه ليعمل خادماً في مخفر معسكرنا (أنصار 13) للاجئين الفلسطينيين، ليكنس ويمسح، ويحضر الشاي والقهوة والزعتر والبابونج واليانسون والحلبة والميرمية والقرفة للشاويش أبو شرّين، وللعريف أبو زكي، وللباقي أفراد شرطة وضيوف المخفر .

والشاويش أبو شرّين قائد المخفر، لا يكلِّف نفسه أن يرسل شرطياً لاستدعاء شخص مطلوب، أو شخص مشتبه به، من المعسكر إلى المخفر. كانت التعليمات تقول :

إن الشرطي لا يستطيع حسب الدستور والأنظمة والقوانين المرعية، أن يدخل بيت مواطن ليلاً لاستدعائه، إلا إذا كان معه كتاب من المدّعي العام، أو من الحاكم الإداري، ولا يدخل إلا برفقة مختار الحي، وهذه عمليات قانونية معقدة، اختصرها أبو شرّين

الذي يحترم النظام، ولا يتصرف إلا بالقانون ! فكان يرسل (أبو مقصود) ليلاً إلى بيت الشخص المطلوب، بصفته مهجّراً من المهجّرين، مسموح لـه دخول البيوت ليلاً أو نهاراً، بحكم الجيرة وأهل البلد، فيسحب المطلوب من حضن زوجته، أو من بين إخوته، مثل سحب الشعرة من العجين!

وأبو مقصود هذا، رجل من أهل المعسكر، وغير موظف، ولا تنطبق عليه القوانين المذكورة، ولا يتقاضى أجراً، بل هو مستفيد من الأشياء (الواقعة)! فإذا بقيت بقايا من أغذية مؤن وكالة الغوث، التي توزع شهرياً، يأخذ أبو مقصود حاجته منها فوق مستحقاته الرسمية، وإذا عزم الشاويش أبو شرّين على العشاء، كان أبو مقصود هو سكرتير العملية، وأول من يقترحها عند فلان من الناس، ويُحضر لـها، ويبحث تفاصيلها، ومسميات الطعام وكمياته، وعدد الشرطة الضيوف، وأصدقاء الشرطة، ومن والاهم، وآخر من يُحضر بقايا الطعام واللحوم، من بيت العازم إلى بيته هو شخصياً، فيتعشى الأولاد وأم مقصود...وهذه الامتيازات، أفضل من أي راتب في تلك الأيام المرّة، حيث لا شغل ولا مشغلة تُدِرُّ إيراداً، أفضل من ذلك العمل .

وأبو مقصود هو الذي يفتح باب المخفر أول النهار، وهو الذي يغلقه في آخره، وهو الذي يفتح باب النظارة ويهويها، ثم يغلقها، وهو القائم بالأعمال الرديئة كلها، من آلِفِها إلى يائِها .

ودور (أبو مقصود) عند الشاويش (أبو شرّين)، يشبه دور هذا الديك الأحمر، عند(أبو جلدة). فأبو مقصود يسير في طرقات معسكر أنصار 13، فيحسب لـه ألف حساب، تراقبه النساء من داخل بيوتهن وهو يسير في الطرقات، فيخشينه! وتتمنى أم قاسم أن لا يكون بمروره هذا، متوجهاً إلى بيتها، لأن الشرطة ورطة! وتتمنى أم خليل أن لا يكون قادما ليأخذ أحد ذويها، وترتعب أم ناجي خوفاً من أن يكون مروره في الحارة باتجاه بيتهم، لجر زوجها إلى المخفر، لسبب أو لآخر! فإذا مضى وذهب بعيداً عن منزلها، تتنفس الصعداء، وتقول : "الحمد لله! (الشر بره وبعيد) !"

وأبو مقصود شر لابد منه، فاستلطافه واجب، واسترضاؤه واجب، فإذا غضب على فلان من المعسكر، راح فلان في داهية! وإذا أعطى تقريراً ضد فلان، أدخله النار. ولكن رضاءه على فلان، لم يكن بالضرورة ينجيه من النار.

(إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا !)

فما بالك إذا غضب عليك أبو مقصود؟! ولذلك كان أهلنا في معسكر أنصار 13 يلاطفونه ويحيونه ويجاملونه، ويتحدثون معه بهدف

كسر الجمود مع المخفر، واضعين في حساباتهم أنهم لو وقعوا ذات يوم في شِباك المخفر، فإنهم سيجدون شخصا يعرفهم على الأقل، وقد يرجو أبو مقصود العريف أبو زكي، أن يلغي مقررات شلح حزام الكايش والتصرف مع الولد، أو ذاك المتهم ...ذلك إذا كان الوضع يسمح، أما إذا تعدى المتهم الخط الأحمر، فلا يفيد أبو مقصود، ولا العريف أبو زكي، ولا حتى الشاويش أبو شرين قائد المخفر، ذات نفسه ...فالعذاب الأحمر سوف يقع!

ولا أعرف ما الذي جعلني في دكان أبو جلدة، أربط بين (أبو مقصود) الذي يتبختر في طرقات المعسكر، وهذا الديك الأحمر، الذي يتبختر في الساحة، خارج قضبان سجن الفراخ، ولكنني نسيت (أبو مقصود)، عندما شاهدت امرأة شقراء جميلة تلبس تنورة قصيرة، تبدي لحم ساقيها الشقراوين لدرجة الإحمرار.

دخلت المرأة دكان (أبو جلدة) لتشتري دجاجًا ، فانطلق الديك الأحمر باتجاه ساقيها الشقراوين، كالشمام الزهري يا حبيبي! ودون إحم ولا دستور، أخذ ينقر لحمها الطري، نقرات مدمية! فصرخت المرأة مرعوبة، واستغاثت بالزبائن متوجعة! وهجم الزبائن على الديك، فأمسكوه، وفوراً استل أبو جلدة السكين، فذبحه على الفور، وتخلص من ثارات دموية لجماعة المرأة الشقراء !

مجلة الطريق- رام الله – 6 - 2005

صبارين 47

كان أبو عوض يعيش وأفراد عائلته في قرية صُبّارين جنوب حيفا، وكان الناس هناك هانئين سعداء، إلى أن جاء طوفان الهجوم الكبير من صهاينة منظمين، مدربين مسلّحين، مدعومين بكل قوى الشر والطغيان، وحكومة الانتداب البريطاني على فلسطين، تنشط في تضييق الخناق على شعب محكوم بأن يكون أعزل من السلاح! فأي سلاح كان يحمله الفلسطيني، كان سبباً كافياً من حكومة بريطانيا العظمى لقتل حامله، ولهذا السبب، وصل إلى الإنجليز بلاغ من جاسوس مُخبر، يقول إن (أبو عوض) يملك (فرداً)! والمسكين فعلاً كان يملك مسدساً لحماية نفسه من أفراد (القبنية) اليهودية التي أقاموها إلى جوار قريتهم صُبارين عام 1945، والتي كانت مجاورة، الحجر بالحجر لأرض مزرعته .

وكثيراً ما وقعت حوادث قتل للعائدين مساءً من مزارعهم إلى بيوتهم، كانوا يقوسون عليهم من داخل القبنية، فيقتلونهم مثنى وثلاث ورباع.. وتبقى جثث القتلى يوماً أو يومين، إلى أن يمر أحد، فيخبر عنها، فيأتي أهل الشهيد، ويحملونه إلى المقبرة!

خاف الناس على حياتهم في تلك المنطقة، ولم يعودوا يستطيعون الذهاب إلى مزارعهم، أو زيارة أقاربهم، أو أصحابهم في القرى المجاورة، إلا على شكل جماعات، لحماية بعضهم البعض من شراسة العصابات المسلحة في (القبنيات) المجاورة. فاشترى أبو سليم فرداً، وذلك فقط للدفاع عن نفسه، ولكن أجهزة التجسس كانت قوية، فعلى الطريق المؤدية إلى قرية صبارين، استوقفت سيارة جيب إنجليزية الفلاح(أبو عوض)، العائد من مزرعته، وهو يشبك بذراعه سلة مملوءة بثمار الصبر الأصفر مثل الذهب، كان قد قطفها من صبراته، ومرغها بأعشاب الأرض الجافة، ليفصل أشواكها عنها، ثم جمعها في سلته، حلساء ملساء، بلا أشواك، وهو يقول لنفسه :

أكواز الصبر هذه، ستكون مفاجأة لحليمة! أول الموسم! ستقول لي :

" هكذا بسرعة استوى الصبر يا عبد العزيز؟" فأقول لها..ماذا أقول لها ؟سأقول لها :" ما أنت عارفة يا حليمة! هذا الصيف حار جداً !" وسأدللها قائلاً: " ولكن حرارة الصيف ليست أعلى من حرارة قلبي يا حليمة، الذي ينتظر وصولي إليك على أحر من الجمر! ولذلك أحضرت لك هذه الهدية! والنبي قبل الهدية!"

وسوف تخجل حليمة، وتستدير قليلاً إلى جانب، لتعرض لي جمال جسدها، بينما عيناها عليّ، وعلى الصبرات وهي تقول بدلال مؤدب :

" لماذا غلّبت نفسك يا عبد العزيز؟" فأقول لـها :

" ما هو عشان الأولاد يا حليمة!" وستقبل الهدية، وأنا أعرف؛ إنها تقبل مني كل شيء! فما بالك بالصبر الذهبي الذي لا يقاوم إغراؤه؟

صرخ به الجندي الإنجليزي :" إندَك.." يقصد ؛ توقف عندك !

هكذا كانوا يفاجئون المواطنين المسالمين. فتش الجندي ملابس أبو عزض ، فأخرج المسدس من وسطه.مسكه مسك اليد!

كبّلوا يدين الميتّم ورجليه بالحديد، ثم أخذوه مخفوراً داخل سيارة الجيب، وأرسلوه إلى حيفا، وعلى الطريق، نظر إليهم قائلاً :

" ولكن من سيرسل هذه الهدية إلى أم عوض؟" أخذوا منه السلة والتهموا حشوات ثمارها أمام ناظريه! بحلق فيهم أبو عوض وهم يبلعون الصبر.."أولاد الكاااالب! إنهم يعرفون كيف يقشرون الصبر ويأكلونه مثل القرود!"

وهناك حكموا عليه بالإعدام. كان حكما عسكريا فورياً، حيث صدر بلاغ مستعجل من القاضي العسكري يقول :

"نظراً للظروف الاستثنائية التي تمر بها فلسطين.." وأضاف الحاكم:

" لا وقت لإطالة التحقيق والتوقيف، فالمعتقلون كثيرون، ونحن لا نملك أن نؤكّل وننوم ونخرّي هؤلاء المخربين الفلسطينيين! إعدام!"

وفي طريقه مقيداً إلى المشنقة، لم يكن أبو عوض بكامل قواه العقلية، ولم يصدق أنه سيذهب إلى حبل المشنقة بتلك البساطة، وبتلك السرعة، وبتلك السهولة! ودون أي روتين أو معاملات إدارية، أو تعقيدات إجرائية! لم يكن يعتقد أن الأمور سهلة إلى هذه الدرجة! وللخروج من ذلك المأزق، راح يفكر بحليمة :

" سأحضر لك في المرّة القادمة يا حليمة، ما وعدتك به ؛ سلّة تين خرطماني مثل العسل، مفاجأة أوّل الموسم! ستفرحين بها

كثيراً، أعرف كم تحبين التين الخرطماني يا حليمة ! وأنت يا عوض دير بالك على البيت، بدي اياك تصير زلمة في غيابي! كان أبو عوض يحدث نفسه ويتمتم، وكان كابوساً متشابكاً من الأحلام يغزو عقله، فيرى فيه هوّة عميقة بلا قاع يسقط فيها، ثم يكتشف أنه مربوط بخيط رفيع مطاطي فيشده إلى الأعلى، ولكنه لا يمكّنه من التحكم والارتفاع به، والنيران تهاجمه من جميع الجهات والأغنام والماعز ترعى كرم العنب والجمال تأكل ألواح الصبر والسباع تهاجم الخراف فتلاحقها الثيران بينما هو يطلق النار من مسدسه فيصيب الأسود التي لا تموت ولكنها تقع كلها في أتون حمم البركان النارية المتصاعدة من فوهة البئر اللانهائية وحليمة تركض وهي تضم أطفالها إليها فيتعربشون على رأسها وكتفيها وبذيل ثوبها وهي تركض وجنود بريطانيا العظمى يرفعون العلم البريطاني ويعزف النشيد الوطني ترافقه موسيقى القرب الأسكتلندية بموكب أحمر جميل الألوان وساحر الأنغام وصبايا صبارين الجميلات يتراكضن ويتضاحكن وهن يجمعن قطوف العنب في سلال بينما النيران تلتهم أوراق العنب التي تتثنى وتنكمش متقية لهيب النيران وتدور حول أعناقها، ثم تغمض أطرافها وقد تحمصت وتجففت باللهب الذي يحرق أثوابهن المزركشة الجميلة، فتكشف عن أفخاذهن المبرومة البيضاء وهي تحترق..ولكن الجنود جرّوه إلى جوف غرفة معتمة، أرضها خشبية، حيث علقوه بحبل المشنقة، ثم انشقت الأرض الخشبية من تحته، ولم تبتلعه، بل تعلّق جسده في الهواء المكتوم!

ذهب أخوه عاهد جمّال، برفقة رجال من القرية، فاخذوا جثته، وعادوا به محمولاً على ظهر جمل، وصلّوا عليه، ثم دفنوه في مقبرة صبارين، وهناك تعاهدوا وعاهدوا الله على الانتقام لشهيدهم. ومنذ ذلك اليوم، صارت أم عوض تسمى(الأرملة)، وحولها أربعة أولاد وبنت، كلهم أطفال، قطاطيم لحم، وأكبرهم عوض الذي لم يتجاوز تسع سنوات، في ذلك العام 1947.

قراءات نقدية
في ثلاث قصص من المجموعة.

محمد قرانيا.

قصة (العابرون)

تعزف القصة على الوتر الأدبي ألحان السفر والترحال والهجرة من الأوطان الذي يضمن التنويع والربط والتشويق والغرابة، لأن تغيير الحيز المكاني هو تحويل من المعلوم إلى المجهول، وهذا التنويع الجغرافي يستتبع بالضرورة تنوعاً في الرؤية، ونمط الوعي، إذ يغدو السفر قوام السرد القصصي الذي يمد الكاتب بشحنات انفعالية عالية، وهذا ما أقامت عليه القصة بنيتها، وهي تنقل لنا مشاعر ضابط صهيوني يقبع في كوخه في مدينة نابلس بعد طول عذاب، مترقباً متوجساً، فتظهر معاناته القاسية، وهو في هذا المكان الغريب عن أهله، المنقطع فيه عن جذوره.

تعتمد القصة أسلوب التداعيات التي تستدعيها حالة استلقاء الضابط القلق، وهو خائف من كل حركة أو نأمة حقيقية، أو وهمية تعشش في الخيال، خائف من كل فلسطيني سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلاً، ويشعر بالخزي فضلاً عن الخوف، فهو يقاتل شعباً يعيش على أرضه، ويسكن في منازله التي عمرها آباؤه وأجداده، بينما هو الضابط (سوميخ) قد انقلعت جذوره من الأرض النمساوية، لتنغرس عنوة في هذه الأرض الفلسطينية عربية الهوى والجذور.

إن معاناة الضابط الصهيوني تبرز مقدار ما يشعر به من غربة واغتراب، فهو هنا في هذه الأرض وحيد معزول عن العالم، محروم من الحب والجمال، بينما ابن خالته يعيش في سان فرانسيسكو سعيداً بتجارته وأرباحه المجزية.

يستعيد الضابط المضطجع على سرير الدورية في الخيمة لحظات هجرته مع أسرته من النمسا، لحظة فلحظة، ويقارن بين السعة والاستقرار الذين كان يرتع فيهما هناك، وبين الضيق والخوف اللذان يستعمرانه هنا.

وقد أجاد الكاتب التوصيف والتعبير عن حالة هذا الضابط المستورد، كما أظهر جمالية المقاومة التي يبديها الأطفال الذين

ينبعون أمام عيني الضابط من كل ركن وزاوية، يلاحقونه بحجارتهم، حتى ليخامره شعور بأنه هو الملاحق والمحاصر والخائف.

ينتقل الكاتب مع الضابط عبر تنقلاته التي قطعها من فيينا إلى فلسطين، فيقف على جزئيات الهجرة اليهودية ودوافعها، وماهيتها بأسلوب فني جميل، ينتهي فيها الضابط إلى قناعة تامة بأن هذه الأرض ليست أرضه، وأنه لا مفر بعد الذل والإهانة والموت الذي تعرض لـه باقي أفراد أسرته من التفكير بالهجرة المعاكسة ليلحق بالمهاجرين من فلسطين المحتلة إلى أمريكا . وقد كانت هواجس الخوف تستعمر قلبه، لذلك ما إن اطمأن إلى هذا القرار، حتى طرق أحدهم من الخارج باب كوخه، فارتبك وحمل مسدسه وتهيأ، ثم قام وفتح الباب، فإذا به أمام أحد المجندين!

الجميل في القصة أيضاً أنها تحمل في عنوانها (العابرون) ترميزاً تاريخياً وثقافياً، فهو من ناحية التاريخ يشير إلى عبور النبي موسى أرض فلسطين، وهو من ناحية الثقافة والفن يؤكد أن على هؤلاء الصهاينة الأغراب هم عابرون على هذه الأرض، عابروا طريق! والعبور هو الوجه المضاد للإقامة، كما تجلت في القصة تلميحات سريعة إلى التاريخ والجغرافيا والطبيعة، فالفلسطيني كما بدا من خلف السطور هو المدافع عن الأرض بحجارة الأرض، وهو يقيم في بيئة يولد فيها ويكبر ويحب ويتزوج وينجب، بينما الصهيوني لا يجد مكاناً آمناً للسكن والحب والإنجاب، إلا المكان الذي أتى منه!

قصة (الخريج)

يوحي عنوان القصة (الخريج) بأنها تدور حول طالب يتخرج من إحدى دور العلم، بوصف العنوان علامة دالة على فحوى النص، تلخص محتواه، ليحقق العنوان هوية النص، كمفتاح تأويلي دلالي يحمل قيماً أيدولوجية، ورسالة لغوية مشفرة يفككها القارىء، بعد أن يغريه العنوان بارتياد عالم النص الذي يتربع على قمته. وما أن نقرأ الكلمة الأولى بعده، حتى نطالع اسم الشخصية المحورية الوحيدة في القصة، وهي تقف وحيدة أمام المرآة، تتلمس آثار الزمن عليها، وتسترجع عالماً زاخراً بالمكاسب الشخصية، والنقلات العصرية التي تعيدنا إلى مغزى العنوان، لنكتشف أن الرجل الثمانيني خريج معاهد المرحلة الحداثوية الاجتماعية والإدارية، وأنه واحد من أولئك الذين أتقنوا أساليب العيش، وعرفوا من أين تؤكل الكتف، فأجاد التكيف المناسب مع المواقف العامة، ولبس لكل حالة

لبوسها، بعد أن اكتسب خبرة بالتعامل مع النساء والأسواق والأسهم والمسؤولين وكافة الفئات التي يتطلب التعامل معها.

يلفت النظر في رسم الشخصية القصصية النامية إلى حد التورم براعة الكاتب في إضاءة الملامح النفسية لهذه الشخصية، فدلالة اسمها (الحارث السبهللي) يعبر عنها، فالحارث لغوياً يفيد اللقاء مع الأنثى، مصداقاً للآية الكريمة(نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم، ولكن من حيث أمركم الله)، وهنا تبتدىء المفارقة بين النص القرآني الذي يرسم العلاقة الزوجية الحلال، وبين هذا (الحارث) الذي يحرث في نساء العالم، وفقاً لمعطيات القيم الاجتماعية الجديدة التي يحملها التاجر العصري: " الجميلات من نساء المستضعفين في الأرض، يأتين صاغرات راكعات طالبات مساعدة مؤونة الشتاء لأطفالهن، حيث لم يبق أمامهن سوى أن يأكلن بأثدائهن.. سيكون معك مرافق أو مرافقة...وتزور معها نادي الجميلات النائمات.."

ولعل ترميز الكنية أو اللقب (السبهللي) يشير إلى تركيب مزجي مؤلف من كلمتين(السب) ومعناه الشتم، و(هللي) الذي يعني التهليل والتعبير عن الفرح، وبتالف السب مع التهليل يمكن أن نقف على البعد اللاأخلاقي لدلالة الاسم واللقب اللذين يحملان أبعاد هذه الشخصية التي أجادت الإبحار في خضم هذا الزمن الذي خبر فيه الذكر الخصائص الجمالية للأنثى "أنت تعرف كيف تأسر النساء يا حارث. صرت تفهم كيف تتفحص وتعاين وتنتقي، حسب أحدث المواصفات. من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، هذه المرأة كعبا قدميها مستديران من الخلف، (يقطعان البركة من البيت) وتلك الحسناء عيناها بحيرتان زرقاوان، وأنت فيهما تغرق، تغرق! النهدان الضخمان ليسا جميلين، والضامران أيضاً، وكما قالت الراقصة اللولبية (خير الأمور الوسط)"

إن مجموع المزايا التي تتمتع بها هذه الشخصية تدخل في كل مضمار، وتنجح في كل ما تقدم عليه، هي شخصية عصرية جداً، تواكب المستجدات الطارئة على المنطقة العربية، وقد عمد الكاتب إلى تضخيمها بقصد الإدانة حتى غدت شخصية كاريكاتيرية، اقتربت من الشخصيات المعاصرة في الرواية الحديثة والمسرح، التي تقوم على البعد الدرامي، وتتألق بأبعادها الثورية والإدارية والمادية، وتحمل في فكرها اللوازم التي تتوافق مع توجهات المجتمع الاستهلاكي التجاري، المفرغ من القيم الإنسانية، في مرحلة التسعينيات من القرن المنصرم وبدايات القرن الجديد، ولعل إدانة هذه الشخصية نستشفها من مقدرة الكاتب في تركيز جهده على البناء الفكري لشخصية الحارث التي صاغ بها رؤيته الأحادية أو

الانتهازية للعالم، وتعبِّر عن وجود شريحة اجتماعية وسياسية وتجارية تتحرك وفق أهوائها من جهة، وتسعى لتشكيل العالم الذي توجد فيه حسب رغباتها من جهة أخرى، فالحارث خبير بكل شيء من تجارة الأراضي إلى التصدير، ومن النساء إلى الأحزاب "صرت خبيراً بالنقابات والجمعيات والاتحادات، وكيفية الصراع الحزبي والجبهوي والفئوي والعنصري والديني والسلطوي والثقافي والشخصي والمزاجي داخل كل مؤسسة، وللأسف صرت الآن تعرف كيف تعوم داخل هذه المؤسسات."

إن اعتماد القصة على شخصية واحدة، يجعلها قريبة من فن المونودراما المسرحي، حيث يقف الممثل وحده على خشبة المسرح، في مواجهة الجمهور، وهذا ما فعله بطل القصة، حيث جعل مسرحه أمام المرآة، وابتدأت الأفكار تتوارد على مخيلته، لتبرز من خلالها مواقفه الشخصية وأفكاره الجشعة عبر عملية الاسترجاع والاستذكار، وذلك بالخروج من اللحظة الآنية التي تضيق بتوارد الأفكار عن السلوك، والبراعة في الحركة التي عملت على إظهار حقيقة الشخصية المتورمة بأمراض المرحلة، التي تطابقت مع دلالة العنوان(الخريج) العصري الذي أتقن علوم الجشع الانتهازي، والتي تتنافر مع قيم مجتمعنا، وشخصيتنا العربية.

قصة (رغبة في التسوق)

تسلط القصة الأضواء على امرأة تمثل شريحة اجتماعية مسحوقة، تعيش في بيت من الصفيح مع زوجها وأولادها، وقد ألقي القبض عليها، متلبسة بتهمة السرقة من محل عام للمواد التموينية، مع أنها لم تسرق قط، وإنها كانت تندفع إلى السوق التمويني، فتأخذ عربة فارغة، ما تلبث أن تملأها بما تشتهي ويشتهيه أولادها من المعلبات الغذائية والمنظفات وغيرهما، ثم تسحبها.. وقبل الوصول إلى مكان دفع النقود تتركها بحسرة، وتذرف الدموع عليها، وهي بعملها المتكرر المحبب هذا، تعوض عما تفتقده في الواقع، وتريد امتلاكه، فتقول للضابط الذي يتولى تفتيش بيتها والتحقيق معها :

" تنزل دموعي يا حضرة الضابط، وأنا أودِع عربتي، التِي تعِبت وأنا أنتقِيها بلهفة من كل رفّ، أحتضنها وأودِعها، والله أعزّ مما أودِع أولادي، وأتركها وحدها تنظر إلي، الاحظ أن للمشتهيات عيوناً ترنو إلي، وتتعلق بعيني، فأخرج ودموعي تنساب على وجهي! وبعدها

صارت عندي عادة. تعودت رجلاي على الذهاب إلى هناك، للتفرج على مشتهياتي ! لا تكتب مشترياتي، أكتب مشتهياتي! لأنني لا أقوم بالشراء، بل أمضغ الدخان القادم من جهة الشواء !"

ولعل المرأة أقنعت الضابط بواقعها المر، فتعاطف معها وأمر مساعده أن يغلق المحضر على مسؤوليته الخاصة . ولو أن الكاتب تمادى إلى أبعد من ذلك في تعاطفه مع المرأة المحرومة المتهمة، لجعل الضابط يفرغ لها جيوبه، ما دام قد وصف موقفه منها بالتعاطف وحسن المعاملة . ولكن الكاتب اكتفى بتحميل الضابط المسؤولية في تبرئة المرأة الفقيرة، وعدم تجريمها.

يلفت النظر في لغة السرد القصصي، أنها جاءت مزيجاً من العامية واللهجة المفصحة، التي تراعي مستوى المرأة الطبقي " ألبس بدلتي الخاصة الفخمة التي اشتريتها مستعملة من (البالة) بالشيء الفلاني، فأبدو مثل نساء المجتمع الراقي، وطز! نعم أكتب طز! فهل هنّ نساء المجتمع الراقي لا يذهبن إلى البالة؟ والله نصف ملابسهن من البالة، بس يا عمي بالتهن درجة أولى، ونحن نشتري البرارة!"

إن أسلوب استنطاق المرأة رشيق تعبيري، لكنه لا يعبر عن حقيقة واقعها المدقع، وإنما ينم عن ثقافة عالية في بعض الأحيان، تؤديه على مسامع المحقق وصحبه، كما يؤدي ممثل بارع دوره على خشبة مسرح ملتزم، فهي تدخل السوق التموينية رافعة الرأس " كان يأمرنا أحمد سعيد في إذاعة (صوت العرب من القاهرة) قائلاً: إرفعوا رؤوسكم يا عرب! فكنا نرفع رؤوسنا، ولكنهم كانوا ينزلونها لنا بعد ذلك ميكانيكياً. كان إبني عماد يدرس شيئاً كهذا، إسمه ميكانيك، كان يقول إن كل شيء سببه ميكانيكي، وأنا لا أعرف معنى ميكانيكي ولا (كيكي)!"

ويلاحظ على الأسلوب تأكيد المرأة على السخرية والنقد اللاذع، على الرغم من وضعها في حالة تفتيش وتحقيق بحضرة ضابط ومساعدين ومختار، وقد انتفى لديها عامل الخوف على الرغم من أن الضابط نهرها ! "أنت تخرسين وتجيبين على أسئلتي، دون أن تسألي، فقالت منضبطة، وخائفة : حاضر."

لكن هذا الامتثال والخوف تناساه الكاتب، فتركها تعبر عن موقفها من السلطة التي سرحت زوجها الحارس بسبب الاعتماد على الحراسة الآلية، واعتزازها بأنها (ست بيت) وتأثرها بالدعاية التلفزيونية:

" صرت أشاهد إعلانات كثيرة مغرية بالتلفزيون، تدعو لزيارة السوق الكبرى. وأنا أكثر ما يعجبني هناك، التذوق ! تقابلك صبية

جميلة، تدعوك لتذوق أنواع من لحوم السنيورة، أو قِطَعاً من الجبن، يا إلهي كم أنا أحب الجبن! أي نوع من الحبن! مالح، حلو، حامض، قرد!"

القصة لقطة بارعة تصحب القارىء إلى العالم المنسي الذي يعيش فقراؤه على هامش المجتمع، وقد استطاعت من خلال وعي المرأة المتضخم أن تدين المجتمع بأسره، والذي افتقد التكافل الإجتماعي، فعاشت طبقة في القمة، والتصقت طبقات بتراب الأرض، مكتوية بحرارة بيت الصفيح، صقيعاً في الشتاء، وحميماً في الصيف.